عروبة مصر !

أحمد ع. حجازي

هذه الدراسة (*) التي أقدمها ليست محاولة في اثبات عروبة مصر . فعروبة مصر ليست شيئا منفصلا عن مصر ، انها مصر ذاتها ، فليس ينكرها الا عدو ، أو خادم له . أو صفيق لا يستحي من انكار الواقع الماثل . وأنا لم أكتب هذه الدراسة لاي من هؤلاء ، وانما كتبتها للذين يعلمون ان الاعتزاز الحق بمصر يعني الدفاع عن أرضها وثقافتها وحريتها ومصالحها ومقدساتها . وهذا بالضبط ما تريده منهم العروبة ، فمن يعتز بمصريته ويدافع عنها يعتز في ذات الوقت بعروبته ويدافع عنها . وقد آن أوان الخروج من أحابيل هذه المناظرة الخبيثة : مصريون أم عرب ؟ فليس هناك عربي لا ينتمي لقطر بالذات من أقطار الوطن العربي ، وما دمنا مصريين فنحن عرب . والسؤال الذي ينبغي طرحه هو : ماذا يترتب علينا من واجب بحكم انتمائنا لمصر ؟

ليس هناك في الحقيقة الا جواب واحد هو الدفاع عن مصر ضد أعدائها . ولكن من هم أعداء مصر ؟ هنا تتناقض الاجابات باختلاف درجة الوعي وتناقض المصالح . فالذين يعيشون من كدهم وعرق جبينهم ويدركون ان حياة أبنائهم متوقفة على تحرر بلادهم وتقدمها يرون ان أعداء مصر هم الاستعماريون والصهيونيون والرجعيون ، وهم ذاتهم أعداء بقية الجماهير العربية ، والذين ترتبط مصالحهم بمصالح الاستعمار والرجعية يقولون : بل ان أعداء مصر هم العرب . لكن هؤلاء لا يفصحون عن حقيقة وجودهم فينادون بالعودة صراحة الى أحضان الاستعمار ، وانما يستترون تحت شعار مصر بعد أن يفرغوه من معناه الوطني الحق ، ويحولوه الى شعار مناقض للعروبة ومعاد لفلسطين ، وذيل لاميركا والصهيونية . تماما كما حدث في أوائل هذا القرن عندما كان حزب الامة يرفع شعار مصر ليبرر به الاحتلال البريطاني ردا على الحزب الوطني الذي كان يدافع عن علاقة مصر بتركيا لاثبات عدم شرعية الاحتلال ، حتى وصلت الصراحة بحزب الامة الى أن يقول في صحيفته اذا كان لا بد أن تحكم مصر دولة أجنبية فنحن لا نختار الا بريطانيا !

ان هذا المحتوى اللاوطني لشعار مصر المرفوع في هذه الايام ليس صحيحا فحسب استنادا الى المنطق وحوادث التاريخ الماضي ، بل هو صحيح كذلك استنادا للوقائع العملية التي تحدث في مصر الآن ، والتي هي أقوى ما يفضح هؤلاء الذين يرددون شعار مصر بمعناه الاستسلامي الرجعي . وما أكثر كلمات الحق التي أريد بها باطل !

(*) مقدمة كتاب « عروبة مصر » الذي يصدر عن « دار الآداب » هذا الشهر .

نعم ، لنرفع شعار مصر . لكن ضد المستعمرين الذين يسرقون ثرواتنا ويصدرون الينا الخراب والتخلف، وضد الصهيونيين الذين مزقوا بلادنا وداسوا حرماتنا وقتلوا شبابنا ، وضد الرجعيين المستعدين لبيع كل شيء ما داموا يقتسمون الثمن مع أسيادهم ويحتكرون الثروة والسلطة . لنرفع شعار مصر ضد هؤلاء فلن يكون عندئذ مناقضا للعروبة بل سيكون مرادفا لها ، حتى يصح أن يكون كل العرب بهذا المعنى مصريين، كما يصح أن يكون المصريون عربا .

الشعار الوطني اذن مضمون اجتماعي وموقف سياسي قبل أي شيء آخر . وكما يمكن للشعارات المستمدة من أسماء الاقاليم والاقطار أن يكون لها مضمون تقدمي وآخر رجعي ، يمكن لشعار العروبة ان يكون له هذان المضمونان المتناقضان . فعروبة الجماهير التي تناضل من أجل الوحدة والتقدم والحريات الديمقراطية غير عروبة النظم الرجعية الحاكمة . سوى ان شعار العروبة كان له دائما وفي زمننا الحاضر خاصة مضمون معاد للاستعمار ، لقدرته الهائلة على استثارة مشاعر الاعتزاز بالشخصية القومية المميزة ورص صفوف الجماهير العربية المبعثرة ، وبعث روح التحدي والابداع الكامنة فيها . هذا المضمون التقدمي لعروبة مصر كما عبرت عن نفسها في مراحل التاريخ المختلفة هو محور دراستي . فلم أتحدث عن عروبة مصر من الناحية النظرية أو الفقهية الا بالقدر الذي يضع أساسا لمناقشة فعلها في تاريخ مصر . والسؤال الذي استغرقت اجابته معظم صفحات هذه الدراسة هو : لصالح من من القوى الاجتماعية كان يرفع شعار العروبة؟ أو من هي القوى الاجتماعية التي وقفت مع هذا الشعار ومن هي القوى التي وقفت ضده ؟

وانا لن أكرر في هذه المقدمة ما شرحته في صلب الدراسة ، لكني أريد أن الفت الانتباه الى مسألتين رئيسيتين أعتقد انني قدمت فيهما بعض الاجتهادات . أما المسألة الاولى فهي مسألة الاستمرار والانقطاع في تاريخ مصر الذي ما زال يقدم لنا على انه عصور سياسية متناقضة منسوبة الى السلالات والاسر الحاكمة ، فهو تاريخ يفتقر الى الوحدة وخصوصا بين شطريه الرئيسيين الفرعوني والعربي الاسلامي .

ان السر في هذا الفصل بين مراحل التاريخ المصري هو النظر الى اسلام المصريين وتعربهم على انه نتيجة فعل خارجي كان المصريون مجرد موضوع له . في حين اننا لو نظرنا اليه على انه النتيجة المنطقية لتطور التاريخ المصري القديم من ناحية وتفاعله مع تاريخ المنطقة وأحداثها من ناحية أخرى لادركنا ان مصر العربية الاسلامية ليست الا ولادة جديدة متطورة لمصر الفرعونية التي كانت قد اضمحلت قبل ظهور الاسلام بأكثر من ألف عام . والواجب علينا في هذه الحالة أن نبحث في كل من الحضارة الفرعونية والحضارة العربية الاسلامية عن العناصر المشتركة بالاصل أو بالتفاعل لنصل الى التفسير الحقيقي لسرعة اسلام المصريين وتعربهم وبالتالي لتطور التاريخ المصري على النحو الذي تطور عليه ؛ فهذه الدراسة في أحد جوانبها محاولة في رؤية عناصر الوحدة والاستمرار في تاريخ مصر ، لانها تنظر الى هذا التاريخ على انه نتيجة عمل أجيال الشعب قبل أن يكون نتيجة لعمل الحكام والقادة ، وهي بذلك تهدف الى تحقيق الانسجام بين المصريين وتاريخهم وجعل الانتساب له فخرا بدلا من ذلك الاحساس بالعار الذي يتسرب الى وجداننا عن طريق النظرة التي تقدم لنا هذا التاريخ وكأنه تاريخ عبوديتنا لا تاريخ نضالنا وثمرة اختيارنا وابداعنا في كل ميدان وفي كل عصر .

المسألة الاخرى وهي متصلة بالمسألة الاولى هي الدور الذي لعبه الاسلام والعروبة في الصراعات الطبقية التي عرفتها مصر منذ الفتح العربي حتى الآن .

ان هذه المسألة غامضة جدا . والاجابات التي قدمت عنها سلبية في معظمها ، لان الوثائق التي تتناول الجوانب الاقتصادية والاجتماعية في النظم الاسلامية غير كافية حتى الآن ، والنظم الاسلامية لها خصوصيتها بحيث لا نتمكن من فهمها بالقياس الى مثيلاتها في المجتمعات والحضارات الاخرى ، والباحثون في مسألة الصراعات الاجتماعية غالبا ما يكون لهم موقف سلبي او حذر من الدين عامة ومن الاسلام خاصة . ومن هذا المنطلق الاجتماعي فضلا عن المنطلق التاريخي الذي يفسر انتشار الاسلام بالقهر يشيع لدى كثير من كتابنا ومثقفينا احساس بأن الاسلام والعروبة كانا سلاحا في أيدي القوى الرجعية الحاكمة ، ولهذا ينحاز بعض هؤلاء الكتاب الى مستعمر مغامر مثل بونابرت ضد قائد المقاومة المصرية الباسلة السيد عمر مكرم حامل البيرق النبوي في ثورة القاهرة على الفرنسيين ، كما ينحازون الى مستبد طائش مثل الخديوي اسماعيل ضد عرابي الذي « أقام الأذكار واستعان بالاولياء في حربه مع الانكليز » .

وليس هذا مجال الرد على هذه الآراء الفاسدة ، وانما سقت بعضها كمثال على هذا الموقف الشائع من الدور الاجتماعي الذي لعبه الاسلام والعروبة والذي ارى بحكم ايماني بأن الاسلام والعروبة تطور طبيعي لتاريخ مصر وبحكم قربي النسبي من مصادر التراث العربي الاسلامي انه موقف سريع متحيز منقول عن جهلاء المستشرقين ومتعصبيهم .

ان انتشار الاسلام بالسرعة التي انتشر بها لا يمكن أن يفسر الا بما فيه من قيم شعبية ديموقراطية جعلت

ـ التتمة على الصفحة ٧٨ ـ

معزوفة حب الى مصر

د. حسن فتح الباب

لنا موعد يا حبيبي
تراه بعيدا
وأقرب منه العيون التي حاصرتنا
وهذا الجبل
أرقّ وأحنى ؟
ولكن « وهران » حلم قصير
ومنفاي وعد
وموتي لأني أناديك حق

* * *

أراعيك طيفا يمد ذراعيه
أجفل كالجاهلية .. بيتي حريق
حرام علينا المضاجع
ان الدخان الذي يتحجر
فوق جباه الأحباء أطفال « رملة بولاق »
يرجمنا .. والشوارع ترفضنا
وكل العرائس في النيل موءودة
في انتظار النشور
وهذا النشور على عهده في انتظار الدماء

* * *

تسيرين فوق المياه القديمة
تنتشرين لهيبا جديدا
على الفجر .. و « الجسر » ينهار دكا
ويعتنق الشاطئان
و « نجم » يغني النخيل الذي احتضن الطائرات
صواعق فوق « استراحات كافور »
أفعاه تهجر أرض الصبايا الضحايا
الصبايا السبايا
وأبناء أختي الذين استراحوا بسيناء
لم يشهدوا عارنا .. عرينا
في الزمان الكئيب
العيون التي اتسعت من عذاب « العبور » العظيم
العبور الرجيم تزيد سوادا
لتقتحم الليل في خفية
وفي وضح الشمس .. ان المسافات ذابت
و « كاترين » في الشرفات التي طاولتها الحناجر
تزدرد الغضبة الدموية
تلعق جرح الرعايا الصعاليك
هذا الشتاء الجليديّ ـ تصرخ ـ
لو كان أقسى قليلا
لما غادروا جحرهم كالشياطين
ما روعوا وردة الحلم .. قنينة العطر
والنغم المخمليّ الحنون !!
وولت « سجاح » الى بلد زاحف بالجحيم
وجاءت قوافلنا بالزمن
وتنتصب المقصله

* * *

وتبتسمين اذا ما الرياح تناوحن
في ليل وهران رعدا ووجدا
وتنتظرين الصباح الجميل
وأنت التي حرمتك الليالي سجوّ القمر
ورجفة أشواقنا للمطر
لكم علمتك المنافي
وكم غيّرتك
سلام على بيتنا لا يزال مطارا لغربانهم
... سرّنا يسكن الغرف العاريه
و « وهران » أدنى ولكن حبك يغزو قرانا البعيده
وكنا نغني ونوقظ صبّاره في البكور
ونرتدّ في غبش الامسيات
لنبكي على وطن مستباح
ونقسم أن ننتقم لمصر الشهيده

* * *

هو الحب يطفئه صمتنا
ويجيب حقد على قاتله
فثوري لنسترجع الاغنيه
لقد أورق الجرح شمسا وقمحا
وثوري على السيف فوق الرقاب
ولا تفزعي .. نصله من خشب
ومقبضه من ورق
ورملة بولاق تختزن الصيف
أكواخها ما اشتكت مرة نقص أموالها
انما تشتهي خبزنا
ويدفئها زيتها المغتصب
ولما تراءى المهرج في عرشه لم يروه
ودل عليه الحطب
تعالي نكن أول العاشقين الذين أهالوا الدخان
على نعشه والغضب
يخضب أيدينا الوحش مستلقيا
غارقا في الدم المستحب
تعالي نكن أول العاشقين
وآخر من يسمعون ضجيج الختام

وهـران

«آه يا ليل ... يا عين»

عبد الرحمن عمار

آه يا ليل
يا عين
يا مصر .
تحيين في القلب عصفورة
قصيدة شعر
وطوقا من الياسمين .
ولكنك الآن يا مصر ..
يا خيمة الفقراء
وجميزة العاشقين
اراك ، كما الحلم ،
مشبوحة الناهدين
تقادين كالمهرة الجبلية ،
أو كالعقاب الجريح
الى حيث سوق النخاسة في جبل الطور
ها صرت جارية تصلبين
على واجهات المخازن
معروضة للزبائن و « الاصدقاء »
من السائحين .
المزاد رسا .
وانتهى كل شيء أمام قباب الكنيست
والسعر بخس
فهل ترحلين غدا يا مليحة ..
هل ترحلين ؟
كما يرحل النفط عبر الانابيب ؟..
هم راهنوا أن تكوني لهم
« عزبة » في أعالي الصعيد
هم راهنوا أن تموتي
على شاطىء المتوسط ،
في غربة النيل ،
زحفا على الركبتين
فهل يكسبون الرهان ؟..
أجيبي ! تقولين : لا ؟..
اسمعيني ، متى تخرجين
كما يخرج الحي من موته
والازقة من صمتها
والرصاصة من صرخة القلب ؟..
ان دمي يتمرد في جسدي
وأنا أكتب الآن شعرا لعينيك
يا حسرة القلب
ماذا سيفعل حبر على ورق ؟!
قلت : أعوي على داخلي
مثلما في الدياجير تعوي ذئاب البراري
وارقص كالطير
علّ دمي يستكين قليلا ويهدأ
لكنني خفت في آخر الليل
أن ينهض النائمون
وهم في ذهول بليد
فلا يدركون عوائي
ولا سر هذا العواء ،
فيرمونني بالجنون
وقلت :
لعلّي أرى هاجسا في نعاسي
جريحا كصدري
يقاسمني الدمعة الحارقه
أو أرى بارقا مقبلا
كصهيل الخيول ، غدا ،
من بلاد طوت حزنها
وارتدت ثوبها ناصعا
ليشاركني فرحتي المقبله

* * *

آه يا ليل يا عين
صبّي على الجمر ماء
ونارا
ولا تهمدي أو تنامي .
تمرين في حالتين من الطلق
يا أمة طاردت نفسها
من أقاصي الجزيرة
حتى مياه المضيق .
ويا أمة أدمنت موتها
في سلوك العواصم .
والحرب معلنة
تنشط الآن من طرف واحد
والجنوب الرجيم
اليتيم الحزين
يعضّ التراب
ويدفع غائلة القتل بالراحتين
وعصر « المخاتير » ..
عصر المماليك .. عصر المآدب
ما زال في شكله المستطيل .
يوزع قرصا من « الاسبرين »
على كل ذهن .
فهذا حداء ..
يجيء ، يلبي النداء
ويحتل موضعه في اجترار المآتم والنائبات
وهذا هسيس
يدور ويفتل خلف الكواليس
ثم تعود البلاد لتخلع وجها
وتلبس وجها جديدا ومشنقة
وتجدد فيها القبائل أسرارها
والحدود القلوب
وتفتح مقبرة لبنيها الذين استفاقوا
على عطش وطني .
فيا صرخة من أتون البراكين
يا ليل ..
يا عين
« هلّي » من الدمع ما شئت
قد آن لي أن أطوف الجبال
السهوب
الصحارى
وأعوي على وطني
مثلما في الليالي الشحيحة
تعوي ذئاب البراري
وارقص كالطير
حتى تقوم القيامة
في عاديات الخطى ،
من أقاصي الجزيرة
حتى ضفاف المحيط .

دمشق

رواية « قدر يلهو » : صياغة جديدة

التجربة التي قام بها الدكتور شكيب الجابري في الاربعينات كانت فريدة من نوعها في عالم الرواية .

وضع رواية اسمها « قدر يلهو » تجري حوادثها في برلين وبيروت بين طالب طب عربي وفتاة المانية من همبورغ ، اكبر مرفأ في العالم واعظم ماخور في اوروبا. فاذا انتهت الرواية مروية على لسان علاء، اردفها الجابري برواية تاريخية تروي الاحداث ذاتها التي قرأناها في « قدر يلهو » ، لكنها مروية هذه المرة بلسان بطلة الرواية ايلزا ، وبعنوان « قوس قزح » .

واذا نحن أمام قضيتين تكادان تكونان واحدة في احداثهما ، لكنهما جاءتا مختلفتين كل الاختلاف ، فيما عدا ذلك ، لغة واسلوبا ، وحساسية ، وتفكيرا ، وعاطفة، ولاول مرة في عالم الادب نسمع القصة مروية بلسان « المرأة » بعد ان سمعناها مروية بلسان « الرجل » ، فاذا نحن امام عالمين مختلفين ، رغم تقاربهما . ونلمس بدقة مثيرة الفرق الكبير بين نظرة الرجل ونظرة المرأة الى الموضوع الواحد .

وكانت التجربة على جدتها ، موفقة اهتزت لها افئدة قراء الرواية العربية في ذلك العهد .

وجاء الجابري الى لبنان بعد ان طوف سنين طوالا في الغرب والشرق . ورغبت اليه بعض دور النشر باعادة طبع روايتيه « قدر يلهو » و « قوس قزح » بعد نفاد طبعاتهما القديمة . فابى مسايرة رغبة الناشر والقراء . وحجته في ذلك ان الذوق الادبي يختلف ما بين عهد وعهد ، وما كان يستسيغه القارىء العربي في الاربعينات او الخمسينات من نثر او شعر ، من قصة او رواية ، اصبح بعيدا عن ذوقه في هذا العهد ، وقد بات بيننا وبين الثمانينات شهور قليلة .

ويصر الناشرون على ان روايات الجابري دخلت في أدبنا الكلاسيكي وانه لا بد أن يقرأها أدباء اليوم كما قرأوا عنها في كتب الادب والنقد .

ويأبى الجابري ان يقرأ شباب اليوم ادبه محنطا . ان الجابري لا يزال على قيد الحياة ، وفي فورة من فورات الشباب الثاني .. فهو لا يؤمن بان هنالك شيخوخة ، فالشيخوخة في رأيه استسلام ، وتخاذل وجبن لا يرضاه . اما الحياة في نظره فسلسلة من التطورات البهيجة . والوان من الشباب المتجدد ، اسماها وأرقاها والذها عهد النظرة الشاملة والنفس المرتوية . اذ يسبح الكاتب في جو مشرف ، مستقطب ، يرى منه الحياة . بنظرة أوسع ، وحس أعمق ، ومعرفة أعم ، وصدر رحب ، وقلب عطوف .

ويبتسم الجابري اذ يتحاور ومحرر « الاداب » بشأن روايتيه القديمتين ، ويتفتق ذهنه عن التجربة الفريدة الجديدة التي يريد ان يقدمها لادبنا العربي المعاصر ، ويقول :

ــ «سنعيد نشر « قدر يلهو » لكن بحلة يرضى عنها ذوقي وميلي الجديد . القصة ذاتها والاحداث ذاتها والمسرح ذاته . لكنني لن اقف عند « الازياء » الشائخة، التي تجاوزها الزمان . كريستيان ديور دالت دولته وتقاومت ازياؤه رغم تفوقها القديم . سأكتب القصة ذاتها كما ارى ان يكتب القصص الحديث » .

ويدخل لحظات طويلة في صمت ، ثم يبتسم ويقول :

ــ لن اكتب « قدر يلهو » ، باسلوب الامس .. ولا بأسلوب اليوم .. سأتخطى هذا العهد .. سأكتب كتابي باسلوب الغد البعيد .. وسيرضى عنه ذوقي وسيرضى عنه مفهوم الرواية كما اراه الان واحبه .

كل ما اتمناه ان تسمحوا لي بقفزة سريعة الى شارع الكورفرستندام ببرلين .. استعيد على شرفة من شرفاته مشاهد « قدر يلهو » في حلتها المستقبلية كما تتراءى لخيالي منذ مدة . اضيف اليها مواضيع كثيرة واحداثا عديدة والحانا جديدة تجنبت اثباتها في قدر يلهو في السابق . »

وهنالك، ببرلين ، على شرفة مطلة على مسرح قصته القديمة تسارعت فصول الرواية ، ونمت ، وادخل فيها الوان ومواقف ومواضيع مثيرة . وعادت من برلين « قدر يلهو » بحلتها الجديدة وشكلها الآسر . وتجربتها

الفريدة ، وتلقفتها « دار الآداب » لتكون الدار الاولى في العالم العربي لنشر هذا الاثر الجديد .

تجربتا الجابري جديدتان لا بالنسبة الى الادب العربي وحده بل بالنسبة الى الادب الروائي في العالم . اذ لم يسبق لنا ان قرأنا شيئا يذكر بتجربة الجابري الثانية الا في بعض السنفونيات الموسيقية التي تكتب اليوم مجددا بلغة موسيقى اليوم .

والرواية اليوم تسير بخطى وئيدة الى عالم النشر في منشورات « دار الآداب » .

لكننا آثرنا ان نستبق تاريخ النشر فاجتزأنا من الرواية فصلا جديدا ادخل عليها ، ننشره في هذا العدد ، بانتظار قراءة الرواية كلها قبل مطلع الخريف .

اننا نطرح هذه التجربة المثيرة الجديدة امام النقاد والقراء ، منتظرين رأيهم فيها وتقييمهم لها .

ان في جعبة الجابري عددا من الروايات الجديدة ترجو « دار الآداب » أن توفق الى نشرها بعد أن تعيد نشر آثاره القديمة : « نهم » و « قوس قزح » و « وداعا يا افاميا » و « هكذا سنقاتلكم في فلسطين ».. وسنرى اي الكاتبين ابعد اثرا في قلوب الناس : الجابري السابق، ام جابري اليوم والمستقبل .

« الآداب »

فصل من الرواية الجديدة

الريح تنفخ قارسة . ورذاذ المطر يتطاير على غير هدى ، ويرشدني باسراب من لآلئه الندية . يحط بعضها على حاجبي ، ويرف بعض على هدبي . وفوق خدي خطوط جارية من ذوبها البارد .

سقف السماء قريب . وطيء كما أحبه . انخفض ضبابه ، فغمر أعالي الابنية ، وانسدلت سجوفه تجر ذيولها على اسفلت الطريق .

اما الشارع المقفر ، فسكون كله . حول مصابيحه هالات واجفة لنور ضئيل ، لا يبدد من ظلام الليل الا أقله .

تكاد رهبة السرى تدركني . لولا يقيني اني اسير في اكبر شارع ببرلين ، في الكورفرستندام . وهو ، على تأخر الساعة ، لا يخلو من واجهة هنا ، وواجهة هناك ، تومىء باضوائها المثيرة . ان الحياة ، ان اطبقت أجفانها في المدينة على اعمق النوم ، فانها ههنا في انشط اليقظة وامتع اللذات .

وهرة تسعى . وسيارة تمرق . تمزق عجلاتها الفشاء المنساح رقيقا على اديم الشارع، وتنشر مزقه السائلة بهسيس مثير سريع .

وغير بعيد . على متناول بصري ، شخص مقبل . يسير باتجاهي ، على مهل ، كأن هذا الجو لا يضيره ولا يعنيه .

حثثت خطاي ، لما تبينتها انثى .

ظهر الكلال على ذراعيها ، فوقعتا بغير حول على جنبيها ، تهتزان بغير اتزان ، كدمية يلهو بها صبي عابث .

وكان لقاؤنا في مخروط النور الذي غمرنا به مصباح كريم .

وجه صبيح رغم انقباضه . وتحت قلنسوة المطر كومة من شعر ، تخيلتها ، لما رأيته من شوارد ذؤاباتها المبتلة الطفلة ، ذهبية اللون مشعثة كشعر العرائس .

لكن المحيا الفتي لم يخل من بقاع بنفسجية اللون ، مريبة .. أمن فعل ماجن فاجر ؟.. أم هي قرصات انامل الليل ، ولسع سياط الريح، اذ تعلن للملأ ان بريد الشتاء قد اذن ، ومراكب الثلوج اوشكت ان تنحدر من شاهقات ملاعبها ؟

* * *

ــ آنستي استمحيك عذرا ان اعترضت سبيلك . فقد يشفع لي هذا النوء المتقلب ،لتقبلي صحبتي حتى تبلغي غايتك .

قالت بصوت مستو . لا لون له :

ــ أخاف عليك التعب .

قلت . وقد رجحت في ذهني كفة الامل :

ــ تقطنين بعيدا ؟

ــ اجل ، بعيدا ... بعيدا جدا .

وكنا قد خطونا خطوات مبهمة الاتجاه حين خطر لي بشأنها خاطر . فقلت ، وفي صوتي مسحة من دعابة :

ــ أحب شيء الي أن أنطلق في الليل الكبير ، تحت شلالات المطر ، في دوامة الزوابع ، عبر دهاليز الظلام، يقود خطاي فحيح افاعي البرق ، ويملأ سمعي هزيم معامع الكون الهائج .

ارتسم على ثغرها مشروع ابتسامة ، وتمتم صوتها عميقا رخيصا ، كأنه بدأ يستيقظ :

ــ شاعر ؟..

ــ كلا ، لست بشاعر.

وكدت اردف قائلا : « اجل ، لست بشاعر ، لكنني احب موسيقى الطبيعة بجميع الحانها ، تنقير المطر ، نياح الرياح ، قعقعة الرعد وقهقهة الصواعق ...

أحب مارد الليل حين يخرج من خمارة السماء ضائع الرشد معربدا ، قد تعتعته الحانة ، وفجرت الحانه .

قالت بصوت خافت تحدث نفسها :
ــ رائع !
ثم اردفت تقول :
ــ السيد الشاعر ليس من ابناء برلين ؟
قلت ضاحكا :
ــ السيدالشاعر ، ليس بشاعر ، وهو ... من بلد بعيد .. بعيد .. فيه شموس ورمال ، واشياء كثيرة ، علاوة على قوافل الجمال ...

واشفقت عليها فقد ابتلت اكثر مما ينبغي . قلت :
ــ أترين الى الحانوت المنير ، هناك ، في شارع التاونسين القريب ؟.. ما بيننا وبينه سوى دقيقة .. وانا جائع .. ان فيه مما تشتهي الانفس .. هلمي بنا ففي دفئه يتم بيننا التعارف .
وفي اقل من دقيقتين كنا فيه .

كان فيه من كل شيء يحبه ابناء الشمال : الصومون الاسكندنافي المدخن ، والاسماك المجففة ، والقديد من كل نوع وقياس ، والاجبان ، والالبان ، والمخللات المتراصة في قواريرها ، من خيار هش ، وفقوس حامض ، وبصل لاسع ، وتوابل شتى يثور اللعاب لمجرد رؤيتها ... كل ذلك مكسوا بضباب فاغم من بخار دست كبير ، تتهادى أرتاله بطيئة في سماء الحانوت ، مختالة بما تبيحه للوجوه المشرئبة من ريحها الشهي ودفئها السخي .. فاذا أدت للجائع حقه ، تخففت من أثقالها وانطلقت في الجو ، رشيقة الخطو ، كانها وضباب السماء على ميعاد .

اشرت الى بناية في الصف المقابل وقلت للفتاة ، وفي يدي كيس من ورق حشوته بأطايب الحانوت :
ــ أترين النوافذ البيض ؟
ــ ....
ــ هناك أسكن .. غرفتي ، كما ترين ، غير بعيدة .. ما رأيك لو مكثنا فيها ريثما تصحو السماء ، وأثناء ذلك نتناول طعامنا ، أمام نار المدفأة . ونهيىء الشاي بأيدينا ونحتسيه على مهل وهدوء وتحكين وأحكي ...
قالت ، حائلة الصوت :
ــ لن تصحو السماء . (بصوت هامس ، كأنها تخاطب نفسها ، أردفت :) أجل ، لن تصحو السماء أبدا ..
قلت بلهفة انطلقت من أعماق قلبي :
ــ أرجوك !
ولم تلبث أن تحركت قدماها حيث أشرت ، مقتربة ببطء من وجاري .

* * *

برلين نائمة .
ثلاثة ملايين من سكانها يغطون في سبات . مدينة أحلام ... أحلام زاهية . أحلام باكية . أحلام آمال وجشع . أحلام رعب وضيق وقلق .
نيام يستحثون الليل لينبلج عن فجر جديد ، يستمتعون بمكاسبه ... ونيام يتشبثون بأذيال الليل ، ولو قسا عليهم بأحلامه .. النوم وليّهم والغيبوبة نعيم ...
النوافذ مغلقة . في كل بيت قصة . على كل وسادة ورشة ، ورشة تصنع الرؤى ، لا تكاد تنشئها حتى تتبعثر .
مسرح أوهام الليل هذه المدينة . وكل مدينة . وما حياة نهارها بأقل وهما .
حتى « حديقة الحيوانات » الهائلة ، غير بعيد من هنا ، في غابة التيركارتن ــ القريبة ، أوت الى منامها ، عدا أسد يزأر فيثير نيام الحديقة . ثم يعود السكون ، فلا حسّ ولا نأمة .

أما الارانب ، وصغار الضواري ، وروامس (*) الغابة ، فالليل نهارها .. هو الستر ، وبه المعاش ، وفيه يحلو الحب .
وهذا الجرذ المتحفز ، الرهيب بصيص عينيه البراقتين ! سيد الكهاريز بلا منازع ... أتراه يبادلنا ، لو كان يدري ، قرفا بقرف ، واحتقارا باحتقار ؟!

لعله أحسن حالا في كهريزه من بعض سكان المدينة .. انه ان جاع ، وجد .

في المنعطف القريب ، على بعد قليل منا ، رجل يخرج مترنحا من الـ « كلوكن شتوبة » أي « حانة الاجراس » لكنه لا يوحي بشيء من حيوية الاجراس وفتوة جرسها . فيه شيء يوحي بالفراغ .
كيس منهال ، قربة ينسرب زيتها .
وغانية نفيسة تأخذ بذراعه ، تحاول أن تسند التسعين كيلو وتردها الى بعض وقارها . وعبثا تحاول . نفيسة حقا هذه المخلوقة الشقراء ، وعلى غاية من الاناقة لو كانت الالمانيات يدرين حقا ما الاناقة ..
صوته شاحط . عجوز ، متفسخ ، فيه نبرات من صوت فرخ ديك مراهق ، اذ يرتفع به من طبقة الدو الى طبقة الصول دفعة واحدة ، بأغنيته تلك العربيدة التي ما فتىء يصك بها سمع السكون :
لس أونس نخصال ترينكن ! ترينكن ! ترينكن !
(دعينا نعاود الشراب ! الشراب ! الشراب !)
كل شيء فيه قبيح . وكل شيء فيها جميل .
ورغم ذلك تلصق به وتحنو عليه واياه تريد ...
هو من بلاد الغرب ، وانا من بلاد الشرق .

(*) الروامس : صغار الحيوانات تخرج في الليل من أوكارها .

أنا مثله ، وهو مثلي ... وكلانا يدلف في المدينة بالليل ، بحثا عن مزيد من الحياة .

النهار المشغول ضيق ، مقتر ، شحيح . لا يتسع لجوعنا ...

وجوعنا غول . غول أكول ، يضجّ صفيقا ، ويعول ... مهما نلقمه لا يشبع .

مدمن اقلاق ، وعبد لهو وترف . يستعذب خوض معامع اللذات برداء من كساء الليل ... سواد الليل قماش سهرة الحياة . هو السموكنغ الابدي ، لا تكتمل الا به أعراس مجوننا .

تلفت نحو الزميل البعيد ، استاف غانيته .

كلانا شبه رامس .

ولأمثالنا تخرج في الليل ، من أوكارهن ، بنات الليل .

في الليالي الصافية ، في الليالي الباكية .. في برلين ، في بكين ، في طهران ، في سايغون ، في باريس ، على ضفاف النيل ، على الشاطىء الازرق ، والساحل الزنجي ... لا اختلاف بيننا هنا ، وهناك ، وهنالك ... جوعنا واحد ، قديم قديم . جياعا خلقنا ، وجياعا نموت . ومن شاء أن يمنع ، فليخنق الخلايا ، وليقطع نياط الغرائز من جذورها .

لكني ، في الحقيقة ، لا ازال اخاف بنات الليل ، وتعاف نفسي طوارق الرصيف الضامرات ... ورغم نفوري ، ان مررت بهن ، فلا بد لبصري أن يندسّ فيهن ، أن يغل بينهن ، أن يقتحم سرهن ، أن يخطف منهن شيئا ، أي شيء فيه اثر الانوثة .

البصر ذئب يستمرىء لحم الخطيفة ، ولو كانت مجرد رمز وخيال صورة .

وفي عيشهن متاحف صور ، وخطايا تثير . حمأة وحل ، ومتاهة من طين .. وما أعمق ما تستعذب غرائزنا الاستحمام في الوحلّ ، والتفرج على شطآنه ، والغوص فيه أحيانا ، ولو بالفكر دون الجسم ..

كلما تخمر وتركز وفار بدنس الخطايا ازداد نكهة وطيبا وجذبا ، وشاق نفوسنا لو تعرت له لحظة وانساقت اليه .. ففي نفوسنا وحل التخمر قديم ... بيننا وبين الطين قرابة ... لا ريب في ذلك . لا ريب في ذلك .

وعلى السلم ، الى مسكني في الطابق الاول ، تصعد لقيتي بخطى شاحبة ، منخفضة الراس ، لا تحكي . وخلفها أسير أنا ، هادىء النفس وقورا . لكن بصري لا يني يبعثر أشياءها من خلف ، بفضول تارة وذهول تارة .

ممطرها العتيق ، ذو الماضي الانيق ، صفحة من هويتها الغامضة المثيرة .. لكني تعب مرهق . يتقاطر عليّ النعاس من كل جانب ، فلا وقت لاستجلاء كامل الهوية .

أحد جوربيها ملتف على ساقها . أسفله مبتل قاتم ، وأعلاه أقل ابتلالا وأخف قتوما .. الجورب الملتف على ساق امرأة يثير بي دوما شفقة مشمئزة . فاذا اكتمل بؤسه بالبلل ولطخ الطين ، فأنا حيالها انسان من جليد ، أو كذلك كان يخيل اليّ حتى تلك الساعة .

ليتني لم أعترض سبيلها ، ولم اتدخل في شأنها ... خالق الناس أدرى بمصير الناس ... وأنا نعسان ، نعسان !

* * *

غرفتي مربعة فسيحة . يكسو جدرانها ورق وردي اللون ، نقشت عليه طاقات من الازهار الكبيرة ، كانت تبدو لعيني غاية في الاناقة . وعلى الجدران نسخ رخيصة الثمن للوحات شهيرة . والارض مغطاة بسجادة ممراعة الوبر ، تبتلع خفق النعال ، وتخفف من صياح الارضية الخشبية اذا تكاثر فوقها الصحاب ، واشتد عليها وطء أقدامهم . وجلهم من اتراب الجامعة ومواطنيّ من طلبة العرب في برلين .. ونسق الرياش، على قلته ، تنسيقا لا يخلو من لطف ، تاركا للحركة مجالا واسعا في وسط الغرفة . وهنا وهناك اناء من نحاس دمشق القديم ، فيه عيدان من النرجس . وعلى المنضدة ، قرب السرير ، مصحف صغير يستهوي الاجانب من ضيوفي بنقوشه الذهبية .

لكن ضيفة الليلة لم تلتفت الى شيء مما حواه المكان ووقفت داخل الغرفة ملوية القامة ، حيرى . ولم تلبث أن تحركت مبتعدة عن السجادة ، كأنها فطنت الى تنافر حذائها وهذا البساط الفاره ، المدلل كقطة سيامية .. أو كأنها خافت عليه نقاط الماء تنحدر من آن الى آخر من ثنايا ذاك الممطر الذي تشبثت به فلا تخلعه ، كأنه الحصن الذي تتقي به خطرا تخافه . لم يكن في الغرفة مدفأة . بلَ كان هنالك ، في الواقع ، مدفأة قديمة ، مغلفة الجوانب بنوع من القيشاني الابيض . لكنها لطول ما أهملت استعمالها ولكثرة ما نضدته على رفوفها وفي تجاويف جدرانها من تحف الشام الصغيرة، غدت أشبه شيء بمتحف شرقي صغير.

وأنا من هواة الشتاء ، أحب البرد والامطار والزوابع والصواعق والرياح المعولة . ولا أجد في روائع الموسيقى العالمية شيئا يدانيها نفاذا ولا انسجاما ولا عمقا ولا جمالا .

وكان من الذ اللذات عندي أن افتح النوافذ ، ثم انسلّ في فراشي ، لارسل سمعي الى الخارج ، يلملم لي أصوات الشتاء . عنيفها وخفيفها ، ما مال منها الى

المرح ، وما مال منها الى الكآبة والوحشة والافزاع . لا افراط بشيء منها . وكلما كان اللحن أقدر على اشاعة رعشة البرد في كياني كان آثر عندي وأحب الي .. ولكم ترنمت ، ولا أزال ، بأبيات من الشعر لفرلين تهزني ألى أعماق أعماقي ، أرددها بحنين لذيذ ، لا أرتوي منها ولا يعلو عليها في نظري أي شعر في الدنيا :

Les Sanglots longs
Des Violons
De l'automne
Remplissent mon âme
D'une langueur montone

وترجمتها التقريبية ، التي تضيع الكثير الكثير من جمالها وروعة وقعها ، هي :

العويـــــــل
الطويـــــــل
عويل أوتار الخريف
تملأ روحي بضيق
ضيق
عميق
لطيف

وكان شبابي في فورته كفيلا بملء فراشي بالدفء ، ولو في أبرد الاصقاع .

وقرقرة الشاي ، فوق المدفأة الكهربائية ، كانت النغمة الحلوة التي لا بد منها لتبلغ ألحان الشتاء أقصى عطائهـا .

وغنت لنا الشاي في تلك الليلة ما شاء لها التغني . وأطلقت اريجها ، لتخلق حولنا الجو الذي يبدد الوحشة ويزيل حواجز الكلفة .. لكن وجوم الفتاة الغامض ما كان ليزول حتى يعود فيتجدد .

وشغلنا بالصومون المدخن والتوابل والحلوى . وجاءت كؤوس الشاي ، تشيع بدفئها ، في عروق الفتاة ، خدر النوم .

قالت : ــ اسمي **ايلزا هيلدا برانت** .

وقدرت ان النعاس لا يسمح لها بأكثر من هذا .

فقلت لها :

ــ أرى الجو لا يزداد الا سوءا ، وقد استبد بك النعاس ، وأنا أسوأ منك حالا ، وفي غرفتي سعة . ذاك سرير تنامين عليه ، وأنام على المتكأ بكل راحة .

وقبل أن تجد ما تجيب به ، القيت اليها ببيجامتي ، وأشرت الى باب صغير يتصل بغرفتي اشارة أدركت منها ان هنالك حمام . وخرجت الى بهو النزل . ثم عدت بعد فترة طويلة .

واذا النور مطفأ ، والغرفة ساكنة ، تنيرها حزم من شعاع تسربت اليها مخففة . من مصابيح شارع التاونسين .

كانت الاحلام تنثال عليّ هنية بالغة الطلاوة .

رأيتني واقفا على ظهر سفينة مزخرفة تمخر البحر بسكون . تنبعث من جوانبها في غياهب الليل ألحان ناعمة فتملأ الكون بسحر غامض .

وغير بعيد ، على السفينة الثانية ، وقفت ايلزا هيلدا برانت . فما رأيتها حتى فهمت اني امسيت ، منذ الساعة ، بطلا من أبطال لونغرين ــ أوبرا فاغنر الشهيرة ــ وما لبثت السفينة أن امحت لتلقي اليّ بالبطلة الفاغنرية ، وقد خرّت على ركبتيها ، منشدة بصوتها الشجي لحنا أوحى اليّ انه لبيتهوفن :

« رب لم خلقتني ولم أك شيئا ! » ..

وسعت أصابعي في شعرها الناعم ، واذا بضفائرها العقيقية اللألاء ، تهدر أمواجا من دماء قانية ، لم تزل تتمدد ويشفّ لونها ، حتى غدت حقولا مذهبة السنابل ، يهطل المطر مدرارا من مآقيها ، والسماء صافية زرقاء ، وكلما قطرت من سنبلة قطرة اكتوت يدي بلظاها .

وما لبثت آلاف سنابل الحقل أن رددت ، بعضهن بالعربية ، وبعضهن بالالمانية ، على نسق عجلات القطار السريـع :

ــ دنكي شون ، شكرا لك . دنكي شون ، شكرا لك . دنكي شون ، دنكي شون .

انتفضت جالسا ، مشدوه الفكر ، ضائعا بين حلم وحقيقة . كان ما أحسسته على يدي من قطرات السنابل المطرة ، قطرات دمع صحيح . ولامست شفتا الفتاة ظهر يدي في لثمة مبتلة هببت لها من فراشي ، بصوت غريب ، كأنه أصابه مس :

ــ من ؟.. من ؟.. ما الامر ؟

وكانت هي ايلزا هيلدا برانت ، ايلزا شارع الكورفرستندام ، لا ايلزا فون برانت . أميرة اللونغرين ، التي خلدها فاغنر بموسيقاه الهائلة .

كانت ايلزا غرفتي ، لقيتي في الشارع بعد منتصف الليل ، هي من جثا لصق متكئي على الركبين . تكرر شكرها المخضل بالدمعة ، وتقول :

ــ كان لـ (ذلك) مذاق طيب يا سيدي ..

صحت متهدج النبرة ، الى حد القسوة :

ــ ماذا تعنين بـ (ذلك) ؟!

قالت وفي صوتها استحياء :

ــ ذلك ... الطعام الذي أصبته في بيتك .. كنت جائعة .

أطرقت لحظات ، ثم أردفت تقول :

ــ أربعة أيام ، لم أذق شيئا .. عفوك ، سيدي ، عفوك ، ان خانني الجلد ، فأيقظتك ، من حيث لا أريد

لك الا الراحة .. عظم عليّ أن أتصبر حتى الصباح فأؤديك حقك من شكري !

تبا ! تبا ! تبا ! ألا لعنة على البشر ! ويا لعار المروءات !

بودي أن أبصق ، أن أصيح ، أن أشتم ، ان أهشم انفا ، أهتم فما ، أهيل قمامة الالفاظ البذيئة على .. على .. على كل شيء ، على كل انسان ، على كل مرفه ، ومتخم ، وشبعان ، على كل وحش من وحوش هذه الغابة البشعة التي تجمع على رصيف واحد ، ألوف المشبعين ، وأفرادا من الناس يحملون جوعهم في امعائهم ، وليس من يأبه !

قلت بصوت كامد :

ــ أين كنت تنامين ؟

ــ كان لي غرفة . فلما عجزت عن دفع أجرتها ، اضطرت صاحبتها الى تأجيرها لغيري ، لضيق ذات يدها . فلجأت الى المتنزهات وأطراف التيركارتن القريبة من الشوارع ، لكني كنت لا اكاد أغفو حتى توقظني عربدة سكران أو تهامس مريب ، أو نعيب بومة مذعورة . وأخوفها عندي صفير العسس وحراس الغابة ، اذ خيل اليّ اني ان وقعت في أيديهم فمصيري النظارة أو ما هو أدهى . وقد تحرك رؤيتي فضول احد المارة ، فيقبل عليّ . ولا يزال بي ، يسأل ويتودد ، حتى أفضي اليه بأمري . واذا هو انسان كريم وصديق نصوح . فاذا تبعته ، انقلب تاجرا يساوم . فأنكص على عقبي . وأنا أرى الجوع أكرم من لقمته . ونوم العراء أرحم من مثواه .

ــ أما لك اهل ؟

ــ حديث يطول ... آه ، سيدي ، عفوك ! غفرانك ! أما كفاني ما أقلقته من راحتك .. انني حمقاء ، الف حمقاء ... ليتني لم أقلق نومك ... رباه ! أي شيء فعلت ؟!

يا لهذا الصوت ما أدفأه !.. دفؤه ملون ، دفقة من عطر .. شيء كالبنج ، لكنه يخدر وينشي في الوقت ذاته ..

أين كانت ألوانه منذ ساعة ؟.. زوبعة الشارع أطفأت سراجه ، فبدا كامدا ، خامدا لا حياة فيه .

وتحركت تريد العودة الى سريرها ، فامتدت يدي ، من تلقاء ذاتها ، تبحث عن احدى يديها لتضم أناملها برفق .

وألمت بي رعشة خلت معها ان برد الغرفة ازداد . فطفقت عيناي تبحثان عن مصدر البرد . لكن النوافذ كانت مغلقة ، خلافا للعادة ..

وأردت أن أشجعها لتمضي في حديثها ، فقد قضي الامر ، وطار نومي ، ولن يعود بأي حيلة . واولى لي ولها أن نمضي فيما نحن فيه من حوار . فيخفّ ما في صدرها ، وأطمئن الى ختام القصة بما يهدىء بالي .

لكن صوتي كان قد خولط ، وشابته بحة ، فبدا غريبا ، بل اوشك أن يكون مريبا ، فخفت أن يتنكر لقصدي ، فتؤول نبرته التأويل الذي لست أرضاه .

فرفعت يدي عن يدها . وطلبت اليها أن تمضي في حديثها ، بنبرة اقرب الى الامر منها الى الرجاء .

وكنت متيما بكلمات تجري على لسان بنات برلين مرددة متكررة بموسيقية فاتنة . وكان أعذبها عندي لفظة « بته » ومعناه « رجاء » .

لكن هذه اللفظة الحلوة اكتسبت معاني من الرقة جديدة على لسان ايلزا :

ــ بته ! بته ! بته !

بدات أسكر .. عاد الوسواس الخناس ، يصفر في عروقي ، كدأبه كلما اختلى رجل وانثى ..

وشتّ سمعي ، وتوزعت الجمة وعيي ، ففي كل صوب منها لجام يشده ويحثه ، ويبتعد به من حديث الفتاة الى شؤون أخرى من شؤونها .

الارحام واعادة الخلق

هي الآن تبحر ، عين على الموج يأتي اجاجا
وعين تكوم فيها الرحيل .

هي الآن تبعد ، تمعن في البعد بدر البدور /
وتوغل مخنوقة بالدموع كنقطـة ضوء تراقص في الليل ،
نجم يهوّم فيه الافول .

هي الآن بعض الخرافة كالوهم /
نهر يكابد ملح التواريخ ، تضرى ،

وتمعن نحو الفجيعة والليل /
مقلوبة الرحم بدر البدور /
على شفتيها السنون العجاف
وفي الوجنتين استبدّ النحول

وفي ذات صيف تعرت مع الليل بدر البدور
وارخت ضفائرها للمقطع / (١)
والمرج زنره الجلنار ، فجاءت نجوم الثريا ،
وجاء المقطع

جاءت حواري المروج الوضيئة / جاء الرعاة /
ووهم الطفولة والمستحيل .

مواكب مجنونة بالاريج /
فيا رحمة الله ينقضّ يوم ضرير الرواء فيغلق باب الحظيرة
دون الثريا .

تموت الحواري على « الخوصلان » (٢) ويجتزّ شريان نهر المقطع .

وهذا شفير التردي تسلل بالركب صـوب المجاهل /
صوب تخوم الغبار المبطن بالزيت /

ابراهيم زعرور

يرفو شباك العناكب بالشعر ،
والشعر همّ وبيل .
مدمرة الكبرياء المراكب .

مدمرة كبرياء المراكب و « الخوصلان » ينـوء بزهر الحواري
وبدر البدور على غارب الرحل تغفو

فتبكي الصبايا .
وتبكي المرايا .
ويبكي على مقلتيها النخيل .

* * *

هي الآن تبحر ،
يستنزف القلب نبض الدقائق /
محض انتظار تكدس

محض ارتعاش التوجس عبر المفازات، محض الخواء.
ولا شيء آخر غير التوهم /
غير السراب يمص المسامات في جلد « جودو »
ولا شيء الا الذهول .

و « جودو » ... ملاك هوى في الجحيم /
تبدد في الريح جودو

وما زال يشرب خمرا ملوثة بالسناج ويحلم بالعشق والشوق /
والشوق – قاتل جودو – قتيل .

* * *

هي الآن تبحر ،
يقتل عشاقها المبعدون /
ويعلق بالروح منها بقيّه .

و « جودو » يبذر مدخرات الطفولة :
اقليم حلم ؛
وبدرا من المخمل الاسود اللون ؟
شعرا يسافر فيه الهديل .
وتبحر بدر البدور .
وجودو صداع يعالج بالاسبرين
وخمر مقدسة الافعوان /
سأحكم هذا الرتاج على خصلة تستنيم من اليوم حتى المقطع /

أفتح كل الحظائر
أطلق كل النجوم وكل التواريخ /
كل الصبابات /
تسكر تلك السهول .

* * *

صبوت وتصبو ..
وما زلت تقتلها من جديد .
يحاصرك « الخوصلان » اللعين وترحل عن راحتيك الفصول .

وبدر البدور لها صدر « فينوس »
فهل جئت أهراء روما لتقضم في «الفارنيكا» الاصابع /
أم جئت ترسم بعض النواقص ؟!
كأن المقطع لم يشهد الحب ينفثه صدر بدر البدور
ولم ترع في ضفتيه الوعول .

* * *

وتذرع كل الاقاليم بالعرض والطول /
تزرعها القمح والاقحوان /
وبالنار /
والاحتمالات تفقأ عينيك :
نفس الوجوه /
ونفس المقاطع .
تبيت القوافل تحسب للنجم /
آذار ، نيسان ، أيار ، تموز ، أيلول، كانون..
تموز ... كانون تموز ... تموز ... تموز
تحلم بالسروات الخيول
وما زلت أنت على سدة القلب تاجا من الشوك /
في « سدة » البيت « كيلا » من القمح /
والناصريات تجني سنابل مرج بن عامر /
ما زلت أرعى « الربائب » في المرج /
عمران ما زال ينفخ في الناي قبل الغروب
وفي رحم الغيب شيء جديد ،
وما زلت أنت البتول .

ابراهيم زعرور

---

(١) المقطع : نهر في وسط مرج بن عامر لم يدركه التلوث بعد.
(٢) الخوصلان : نبات بصلي يشبه الزنبق وينمو على القبور .

مقابلة أدبية مع : الروائي غانتر غراس

أجرى جان لوك لوغري حديثا مع الروائي الالماني « غانتر غراس » بمناسبة ظهور آخر كتاب له : « سمك الترس » (١) . ويعتبر هذا الحديث ، الذي نشرته مجلة « الكانزان ليتيرار » (العدد ٣٠٣) ، بالغ الاهمية ، اذ ان غانتر غراس لا يتكلم فقط عن كتابه الجديد بل هو يجيب على أسئلة عديدة حول :

— ما يسميه « حقائق التاريخ » .

— خلود الاساطير ، أعمال ليفي ستروس ، نظام الامومة (٢) ، صراع الاجناس ، الغزوات الانثوية الحالية الهشة .

— حول تقليد ملحمي للادب يعود الى رابليه ويستمر مرورا بسترن ، ملفيل ، جويس ، دوس باسوس ، دوبلن (وهو يعتبر دوبلن أحدث من توماس مان أو برشت ، ويعتبره معلما له بعض الشيء) ، وحول الادب الكلاسيكي الفرنسي الذي بقي دون صدى في الخارج .

— حول أدب اللغة الالمانية التي تعتبر الاهم في هذا الزمن .

وتنقل « الآداب » فيما يلي أهم ما ورد في هذه المقابلة :

س : لنتكلم قليلا عن رواية « سمك الترس » . لماذا اخترت الشكل الروائي لها ؟

ج : ان هذا التصنيف هو في الحقيقة تسوية بليدة . كنت أود ان أسمي كل ذلك « حكاية » ، لكن النقد الادبي وناشري أرادا التصنيف الروائي . ويجب علينا أن نضيف ان « الحكاية » في المانيا ما تزال تعتبر شكلا أصغر لحاجة الاطفال .

س : انك تدرج الشعر في الحكاية . فأية أهمية تمنحه اياها ؟

ج : تتخلى الحكاية ، بسبب شكلها ، عن جميع الحواجز المألوفة . فان القفزات الزمنية وخلود بعض أبطال الرواية ، كالسمكة مثلا ، واضحان كل الوضوح ، غير انه لا يجب توضيحهما على ضوء العقل ، بل انهما معطيان من البداية : هنا ، السمكة تتكلم ، وهذا كل شيء . فلست مجبرا أن أشرح لماذا هذه السمكة تتكلم ، فالحكاية تشرح ذلك على طريقتها الخاصة .

س : اذن فان الحكاية تتضمن جميع انواع القصة ؟

ج : نعم . بالاضافة الى ذلك ، فان كلمة « واقعية » هي التعبير الاكثر اتساعا ، وفهمنا لتلك الكلمة اصبح فهما محصورا جدا . فهي من الان فصاعدا ادراك ما هو عاطفي ، ما هو قابل للالتقاط وللمس . ان الواقعية — الاشتراكية تردنا الى افكار — وقائع ، بينما انا افهم الواقع بما هو نداء لميدان « الخيالي » . فليس لدي أية تفرقة بين ما يحدث في داخلنا وما يحدث خارجنا . ليست لافكارنا اي تسلسل تاريخي ، فنحن الذين نفرض عليها ذلك الضغط الخارجي الذي يخضع كل شيء للتسلسل التاريخي والذي يؤكد أن الخيال يجب أن يستمد موضوعه من مجرى الاشياء الواقعي . ان كل ما نكتبه عن التاريخ هو سجين التسلسل التاريخي . فبينما تصلنا الاحداث التاريخية بفارق قرنين او ثلاثة ، فاننا نصمم على جمعها بالتسلسل التاريخي ، ربما لان ذلك اسهل بالنسبة لنا واكثر توافقا مع المواضعات . وقد اردت ان اصور كذلك خلفية تاريخية — تاريخ الغذاء — ولما كان ذلك غير وارد اطلاقا في النصوص التاريخية التقليدية ، فقد كان لا بد لي من ترك التسلسل التاريخي .

س : هل أضفت واقعية على التاريخ بمساعدة الحكاية؟

ج : ربما ان بداهة الحكاية تسمح لنا ، دون ان يكون لنا ان نشرح الاسباب ، بعض الاحلام ، وبعض الرغبات ، نماذج مثالية ، كرغبة الانسان ، في رواية « الطبل » ، في البقاء صغيرا ، في ان لا يكبر او في ان يطير ، او رغبة السمكة في التكلم ... فلقد كان باستطاعتي ان أقدم تلك الافكار في حكايتي دون ان آخذ على عاتقي الشروحات البسيكولوجية .

---

(١) جنس اسماك بحرية من فصيلة المفلطحات (ملاحظة المترجمة)

(٢) نظام اسرة مبني على سلطة الام (م.م) .

س : هل يمكننا القول ان الميتولوجيا بالنسبة لك اهم من التاريخ ؟

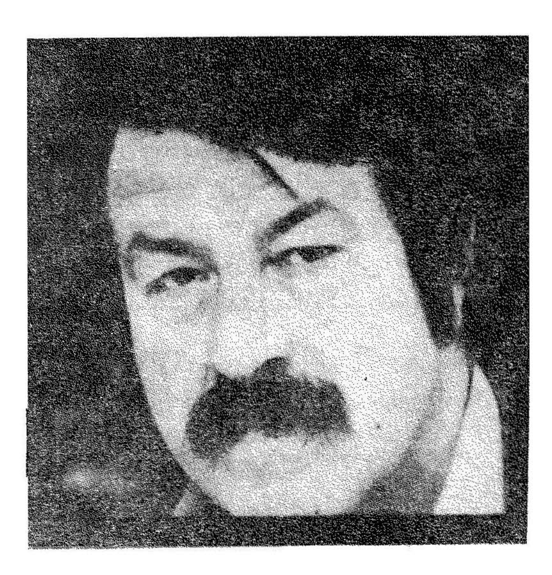
ج : نعم ، فان الميتولوجيا في نظري لحظة حقيقية، واقعية . اننا نحتاج للكثير من الملاحظات ، وهذا ما يتجلى في الفصل المخصص للهند في كتابي . فنحن نواجه اليوم في الهند ، وفي جميع بلدان العالم الثالث، المشاكل نفسها التي واجهناها في القرن السادس عشر ، أي قبل ظهور البطاطا التي أصبحت غذاءنا الاساسي الثاني . ان بلدان العالم الثالث عرفت حاليا ما اكتشفناه في القرن الثامن عشر : ظهور غذاء أساسي ثان كسلاح لمحاربة المجاعة . ان اكبر قسم من الانسانية كان يتغذى لمدة طويلة بغذاء واحد في الشمال ، الذرة البيضاء ، ولم يكن لعدد السكان أن يزداد الا بظهور البطاطا . فان للبطاطا اهمية أكبر بكثير مما ذكر في كتب التاريخ . فهم يكلموننا دائما عن صراعات السلطة ، عن سياسة الاسر المالكة .غير ان حرب السبع سنوات ، بجميع معاركها، لم يكن لها اية نتيجة في تطور المنطقة . فليس هناك من اهمية لان تكون سياسيا تابعة للنمسا او لبروسيا . فان ادخال البطاطا هو الحادث الذي أحدث تغييرا مهما.

س : اهذا ما تسميه « حقائق التاريخ » ؟

ج : نعم ، فالتاريخ التقليدي لا يذكر شيئا منها . حتى التحاليل التاريخية الماركسية التي تكرس قسما كبيرا للتطورات الاقتصادية ، لا تصنفها الا في الدرجة الثانية من حيث الاهمية . يجب أن نتكلم مثلا عن فترة أخرى مهمة في القرن السادس عشر ، تلك الفترة التي عرفت أزمة اقتصادية تقارنها بأزمة البترول الحالية : فقد اكتشفت بلاد الهند بالطرق البحرية وسعر البهار سقط من ٤٥٪ الى ٦٠٪ ففي البداية لم يكن متوفرا سوى بهار اوروبا ، وكان البهار يستعمل كمعيار للعملة، تماما كالدولار في أيامنا هذه . وقد امتدت الازمة وتفاقمت من البرتغال الىاسبانيا، ثم سيطر الانكليز على الاسواق التجارية ، ثم الهولنديون ... وهكذا دمرت العملة .

س : هل استعنت باعمال ليفي ـ ستروس في مواضيعك ؟

ج : بالطبع . لقد كان ليفي ـ ستروس مهما جدا بالنسبة لي . لقد فكرت خاصة بما يتعلق باساطير «النار» . في اليونان القديمة مثلا ، عندما انتصر مبدأ « زوس » . خلق نظام بجميع القيم الابوية(١)، وخلق معه اسطورة بروميتيه الذي ينتزع النار . تلك هي طريقة العالم الرجالي التي يعطي من خلالها معنى للنار . ولليفي ـ ستروس مجموعة من الاساطير الهندية ، يعود



غانز فرانس

تاريخها الى العصر الحجري ، وحيث المراة دائما حاضرة. لقد أردت في كتابي « سمك الترس » ان آخذ الفكرة نفسها وان أطورها بطريقتي الخاصة .

س : أنت تعتقد اذن ان نظام الامومة سبق نظام الابوية ؟

ج : نعم . ولكن ذلك لا يعني ان نظام سلطة المذكر قد سبقه نموذج مؤنث لذلك حاولت ان أطور ، عندما اذكر في حكايتي مراحل نظام الامومة ، امثالا مختلفة تماما حول السيطرة . لقد سيطر على الرجال في ذلك الوقت حضور صدر ثالث : اذ انهم ، وهم يحملون كأطفال ، قد ظلوا بليدين ، خاملين . لم تكن قد تبلورت فيأذهانهم الفكرة التي ستكون فيما بعد تاريخهم ، أي نظام التقدم. ان شكل التطور الامومي دائري .

س : هل تريد ، عندما تعطي الرجال هذا الدور النسبي ، ان تدخل في التاريخ مزيدا من الواقع ؟

ج : ليس التاريخ الا خيال يكذب المؤرخون حين لا يعترفون بأنهم يصنعون خيالا . أما أنا ، فأضع نفسي دفعة واحدة في الخيال . انني أخترع . ان العمل التاريخي يرتكز على وثائق لا يقوم بقاؤها في اكثرالاحيان الا رهن الصدف . ان المنتصرين هم الذين عموما يتركون العدد الاكبر من الشهادات ، لدرجة اننا لا نعلم شيئا فيما يختص بالمهزومين . غير ان مهزومي الامس يمكنهم ان يصبحوا ، بعد ثلاثة قرون ، الفئة التي ستحدد

(١) نظام اسرة مبني على سلطة الاب (م.م) .

مجرى التاريخ . ولنضرب مثلا : هناك لوحات عديدة ووثائق حول انشاء الامبراطورية الالمانية سنة ١٨٧١ تقر بأن هذا التأسيس بالغ الاهمية في تلك الفترة كان اوغيست بيبيل ، وهو اشتراكي ديموقراطي، في السجن، لا أحد يتكلم عنه . وفي الحقيقة، لم يبق شيء من الامبراطورية البسمركية ، وبيبيل هو الذي صنع التاريخ . هنا المثل يوضح الطابع الخيالي الموجود في الوثائق التاريخية . أمام ذلك ، يصبح للكاتب الخيار ان يخترع بعض الوثائق باللجوء الى خياله ، وربما كانت تلك الوثائق اصدق وادق مما كتب من قبل ...

س : لنعد الى مسألة النظام الاومي . الا تعتقد ان تلك المسألة تعبر عن قلق الرجل امام المرأة ؟

ج : هذا صحيح بمعنى من المعاني . فنحن الان وللمرة الاولى في وضع فقد الرجال فيه ، من جراء انهزاماتهم الاقتصادية ، والعسكرية وجميع المحاور الاخرى . ثقتهم بنفسهم . تلك المرحلة المميزة بالقلق وفقدان الامن، وذلك التأكيد الذي اجتاح الرجال بانهم حملوا على عاتقهم أشياء كثيرة ، يتوافقان مع اندفاعة الحركة النسائية الحيية او المناضلة . وهذا طرح آخر للموضوع . هذا ما حاولت ان اعبر عنه في كتابي.

س : هل تعتقد انه شيء مهم ان يعترف الرجال بقلقهم هذا ؟

ج : نعم ، ذلك مهم جدا ، لان ذلك هو اشارة الى انهم يفقدون ثقتهم بنفسهم لكن هذا لا يكفي ليجعلنا نعرف المرحلة التالية . ذلك يتعلق بالشكل الذي ستتخذه الحركة النسائية . باستطاعتنا القول الان ان التوجه النسوي لتلك الحركة الاكثر انتشارا بين الجمهور، بالرغم من انه ثانوي . والحقيقة ان هذه الفئة ، مهما كانت مناضلة ، تمثل الاقل خطورة بالنسبة للرجال ، اذ ان هؤلاء النساء لا يطالبن في الحقيقة الا ان يجدن مركزا في المراكز الذكورية . ذلك لا يغير شيئا ، لان الرجل سيقول حينئذ : « طبعا ، انت مديرة جيدة ، انت جديرة بذلك » . عندئذ يصبح الرجال والنساء متماثلين . وهذا ما اسعى الى اظهاره . والحقيقة ان اخطر النساء على الرجال هن اللواتي يتصورون بدائل انطلاقا من انثويتهن . ولا يوجد من ذلك الصنف الان سوى بعض « الاشكال الاولى » . ان الفلسفة الاوروبية من البداية حتى ايامنا هذه ، تحمل الطابع المذكر . وذلك يؤدي الى الاعتراف بان جميع تصوراتنا حول القيم والاخلاق والسلطة والزمن والتاريخ والدين تحمل الطابع المذكر ، وذلك يتنافى كليا مع النسوية . اذ ان مؤيدي الحركة النسائية يريدون تفرقة الاجناس ويمكن للرجال ان يقولوا اليوم : «نحن متشابهون ، فلنتقاسم » . لنتقاسم السلطة . ولكن عندما تقول النساء : « نحن نختلف ، باستطاعتنا ان نحلّ صراعات لم تحسنوا معالجتها بواسطة الحرب . وذلك بادراكنا المؤنث، عندئذ تستطيع كثير من الخلافات التي سببها الرجال ان تحل. ان تاريخنا بأكمله قد كتبه الرجال وفسروه. والمرأة لا تظهر فيه الا اذا كانت تتصرف كرجل كغولدا مائير وانديرا غاندي وماري تيريز . لقد قيل ان غولدا مائير كانت الرجل الوحيد في حكومتها ، وكان ذلك يعتبر مديحا . ونحن لا نجد نساء يتصرفن بقوة كنساء ، ولكن على العكس ، نساء يستخدمن سلطة الرجل ويتصرفن كرجال ، وفي بعض الاحيان بعنف وبرودة اكثر من الرجال انفسهم .

س : منذ بضعة أعوام ، كتبت نساء بعض الكتب يحددن فيها مركزا نسائيا بحتا ..

ج : هناك محاولات . هناك مثل هيلينا ستيفانس في المانيا الاتحادية : اننا نجد في لغتها سياسة يفتقدها الرجل ، ذلك شيء قد يفهمه ، لكنه يعجز عن صياغته. ان هناك لغة مختلفة ، رؤية مختلفة للمشكلات لست أدري الى اين يفضي ذلك ، اذا كان هناك . انطلاقا من هنا ، احتمال باعطاء شكل ملموس لافكار في مجالات الرجال تقليديا ، كالفلسفة مثلا . سيكون ذلك على كل حال ، امرا مرغوبا فيه . يجب ان يكون هناك بدائل نسائية للتصورات المذكرة للاخلاق والسلطة .

س : كيف يمكنك ان تحدد هذا البديل النسائي ؟

ج : يصعب على الرجل ان يرد على هذا السؤال . المرأة وحدها تستطيع الاجابة . عندما اراقب الطريقة التي يلجأ اليها الرجل والمرأة لحل مشاكل اطفالهم، الاحظ ان النساء يعرفن كيف يجدن حلولا دون اللجوء الى العدوانية . واذا نقلت تلك المقدرة ، التي توجد في العائلة بكمية قليلة ، الى مستوى المجتمع ، اقتنعت بان هناك بديلا لما يحدده العقل ، ولكن هناك بديل ايضا للنتائج اللاعقلانية للمفاهيم المذكرة ، عندما تحصل الخلافات. ربما كان لهذا البديل اصل لا عقلاني ، ولكنه في الفعل يتضح انه معقول .

س : انت تقول ان العلاقات بين الجنسين صعبة. بل ان بعض النساء ، وافكر بفاليري سولاناس ، ينطلقن من استحالة العلاقات بين الجنسين فيجعلن من الشذوذ الجنسي اللحظة القصوى . ما رأيك في ذلك ؟

ج : اعتقد ان ذلك هروب . ان اختلاف الجنسين يجد لحظته الايجابية في التوتر القائم بينهما . فاذا ابعدت ذلك التوتر ، لا شيء يتوضح ، كل شيء يصبح مملا . بلّ يجب على العكس ان ننطلق من هذا التوتر الذي هو منتج . يجب مواجهته .

س : أليس غريبا ان يكون الفصل الوحيد الدراماتيكي حقا في رواية « سمك الترس » يتخذ الشذوذ الجنسي النسائي موضوعا له ؟

ج : تقصد ان سياقه دراماتيكي . الواقع ان ذلك الفصل يختلف من حيث الشكل . انه قصة منفصلة ، نوع من الفكرة الضدية ، فضلا عن انه الفصل الوحيد ، باستثناء الفصل عن الهند ، الذي تدور احداثه خارج دانزيك ، بعد الحرب ، في الستينات .

س : هل تفكر احيانا ، عندما تكتب ، بأشكال موسيقية ؟ انت تتكلم عن الفكرة الرئيسية وعن الفكرة الضدية ...

ج : لقد تخيلت رواية « سمك الترس » اولا من تسعة اجزاء تطورت فيما بعد مع بعض القصائد ، والقطع النثرية ، اجزاء تتشابك ، تنحل ، تلتفي وتلتقي من جديد كانه اتحاد وثيق . ان ذلك أشبه بقطعة موسيقية يتكرر فيها النغم الرئيسي.

س : هل تعتقد انه يمكن ان يترجم الى الفرنسية العمل الذي تقوم به على اللغة الالمانية ؟

ج : بالطبع ، اذا عرفنا كيف نعود الى غنى اللغة الفرنسية التي سبقت وجود الاكاديمية الفرنسية . اعتقد انالادبالفرنسي أصبح محدودا بصفائية (١) الاكاديمية. ان الاعمال الادبية الاوروبية الاكثر اهمية ترتد الى الروايات الاسبانية والى رابليه ، وتلك الروايات تأثرت بالادب الفرنسي الذي يتبع التقليد « الرابليوي » بينما الادب الفرنسي الكلاسيكي بقي دون ازدهار في الخارج.

س : من هم الكتاب الفرنسيون الذين تقرأهم ؟

ج : لقد ترجم فيتشاخت رابليه . وذلك التقليد الذي يجول بين رابليه وفيتشاخت تطاول بلا انقطاع ، فنجد دائما الفكرة الملحمية عند جويس مثلا . او في امريكا والفرد دوبلن في ألمانيا . انها فكرة الرواية الملحمةالكبيرة التي تنسف جميع الحواجز القومية ، باعطاء اللغة قدرة مجتاحة .

س : اذا انت ايضا تفكر ان تتعدى تلك الحدود القومية وذلك بكتابة رواية ملحمية كبيرة ، هل تعتقد انك ستبلغ ثقافات اخرى ؟

ج : نعم ، ولذلك يجب ان نعود الى التقليد الادبي الذي تكلمنا عنه فيما سبق . ان الحواجز تبرز عندما نتخذ من السلوك القومي معيارا . هذه حالة الرواية الانكليزية عندما تفضل ان تتحدد بغولدسميث بدلا من سترن أو سويفت . يجري الحديث في انكلترا وكأن سترن او جويس لا محلَ لهما في الوجود .

س : هل هناك تناقض خاص بألمانيا بين الرومنطيقين والكلاسيكيين ؟

ج : نعم ، فالبعض منهم يبقى قريبا جدا منالكلاسيكية كتوماس مان وبرشت. أما المثلالمعاكس فهو ألفرد دوبلن الذي اعتبره معلما لي بعض الشيء . فهو يتجدد من كتاب الى كتاب .

س : ليس لدوبلن شهرة كبيرة في فرنسا ...

ج : يجب ان يوضع ، في نظري ، على مستوى توماس مان وبرشت . حتى انه في بعض النواحي اهم منهما . ان مجالي الخلق عنده تذهب في كل اتجاه ويمكن أن تقترح لاعمال لاحقة .

س : هناك اذن « ادب الماني » ؟

ج : ان الادب الالماني ، الى جانب ادب امريكا الجنوبية هو اهم ادب يمكن اليوم ان يقرأ . والادب الالمانييشمل أدب ألمانيا الاتحادية، والمانيا الشرقية،والنمسا وسويسرا الالمانية . وذلك الادب يتطور بشكل مستمر منذ ١٩٤٥، وكل جيل متصل بالجيل الذي سبقه . هناك بعض كتاب المانيا الاتحادية كـ « والسر » و «انزنسبرجر » مثلا كانوا ينطلقون من فكرة الهزيمة المطلقة ، والاستسلام، والجرائم الالمانية ، وهناك كتاب اخر لكريستا وولف او « هيرمن كانت » انضموا الى القوى المنتصرة واعلنوا بناء المانيا جديدة . ولكن الان ، عندما بهتت صورة المانيا الشرقية ، بدأ هؤلاء الكتاب يعودون الى كتابة روايات تعود الى الفترة التي سبقت عام ١٩٤٥ . انه وضع كريستا وولف . هناك بالطبع توتر رهيب داخل المانيا في المجال الادبي الالماني بسبب هذه التطورات العديدة . ولكن ذلك هو سبب لحيوية الادب .

س : هل يواجه الكتاب الالمان دائما تاريخهم الخاص؟

ج : ان المسألة هي ان نعلم الى اي حد هم مستعدون لهذه المواجهة. بعد عام ١٩٤٥ ، كان وضع المانيا يجبر الكتاب على تلك التساؤلات الكبيرة . حتى الكاتبالشاب الذي ولد بعد الحرب لا يزال يعاني من الاثار النازية . والوضع يختلف في البلدان الاخرى ، ففي فرنسا مثلا، هرب الادب الى اعتبارات جمالية ـ لها اهميتها ـ كالرواية الجديدة ـ ولكنها لا علاقة لها بالمشكلات الاجتماعية والسياسية .

س : يتصرف الادب الفرنسي وكأن هناك استمرارية التاريخ .

ج : يتصرف وكأن تلك الاستمرارية موجودة دائما ، بالرغم من ان ذلك غير صحيح ، اذ ان الامبراطورية الاستعمارية الفرنسية قد اضمحلت . والوضع متشابه في انكلترا ، ولكن الكتاب الانكليز لا يزالون يكتبون وكأن امبراطوريتهم الاستعمارية لا تزال قائمة . اما في المانيا فكانت الهزيمة من العمق بحيث لا يستطيع احد ان يسمح لنفسه بموقف مماثل .

---

(١) حرص مفرط على صفاء اللغة والاسلوب (م. المنهل) .

سبع عجاف ، وسبع على مرمى القطاف

في اليوم الاول
كان طعامي من أنقاض الخطب ... وكان ...
ودمي يمشي في المتورد من خدي ...
يفتح نفقا ... يدخل جسدي
يحمل صارية من جزر الارض المسبيّه ...
وأنا أنزف صورا صورا من أنفي ...
كانت رائحة الموت تعلق فوق الحائط ... شعبا
تنحره الاحزان ...
ودمي يمشي في المتورد من وجهي ...
ويصير دخان !
بيروت : أزيحي الغدر عن الجدران ... ومرّي
في لبنان الواقف مرّي في جسدي !
في اليوم الثاني
جامعة الدول العربية خرقت لبنان
ورشّت في بردى أطفال فلسطين ...
وقرّت في حبات العين بلادي !
خرقت قلب نيويورك
مدّت فوق البحر شراعا
صارت تكبر في الصحف ... وفي الكون ...
وتلمّع أخبار العالم ...
وترشّ رياحا وطنيه
فوق الابدان !
فتفيق رمال ... وجنان ...
لن تهرب شمس الاحزان وفي الليل
ينام رهان !
لن تهرب شمس الاحزان
مرت فوق جنوب الموت
مرت في مركبة ...
بيروت ... وصوتي ...
سقطت في الشاطىء من ساحلها المبتور ...
سحابات وضباب !
يا نافذة الاحباب ... أطلّي ...
يا نافذة الاحباب ... أطلّي !
يا نافذة الاحباب !
في اليوم الثالث
قالوا للوجع المخضر على ايران ...
هلمّ لنرحل في الاغوار وفي سيناء !

سهام عيطور شاهين

في اليوم الرابع
نبتت في الضعفاء ... حجاره ...
وتلونا سورتنا في الارض ...
كنا ... أطواقا واشاره ...
وسيولا من لجج الزبد ...
فلبسنا الشارع والحاره !
يا سحب الايام تمادي خلف ستائرك الملفومة ...
لن تسرقني العبّارة أبدا ...
لن تسرقني العباره !

في اليوم الخامس
سقطت أوراق سوداء على النيل ...
فخاضت تحت النخلة ريح حملت في المركب تشرين
يا أطواق العالم اني صاغية أسمع صوتا يبكي ...
صوتا يحكي ...
هلتعرف وجهي.. أو كفي.. يا اسماعيل؟
هل تعرف كيف ترملت الانجم ...
كيف تناسلت الأمّ بداء ...
وكيف تلمّعت الانباء ...
وكيف نصفف أرجلها الاحياء على النيل ...
وتسقط !

في اليوم السادس
كاد الليل يناديني ...
لم أسمع صوت الفقراء ... وافريقيا ...
كانت آسية تمر على المتوسط ...
وتحل الشعر تنادي الكرة الارضية

في اليوم السابع
يا صحف العالم ... ماذا يجري في ...
.. القدس لنا
ماذا يجري في القافلة المبحرة الى يافا ..
كانت تحمل أغصانا وصحافا تغسل تاريخ الامم المتحدة ...
تغسلني فوق بقاع الارض وحيفا ...
ترسمني عند ممرات المتوسط ...
ترسم وطني ...
فأزيحي الليل فلسطين عن النيل ومرّي ، فيالشفة الحيّه !
فلسطين : أطلّي ...
صارت جمرا شفتيّه ...
في اليوم السابع لن ابلع ريقي
لن أستلقي فوق ردائي ... لن اغسل بدني ...
لن ترجمني أبنائي ...! لن !
في اليوم السابع مكة تبكي في القدس وصوتي يتربع فوق الصحراء ...
من يشفي الاخرس والابرص ؟
من يرجع لي بعضا من أشلائي ؟!
يا نيل تمدد ... أوصل شهدائي ...
ويزغرد عرق عربي من تموز ويبكي ...
أمي ما حملت اطفالا سودا
ما قالت للطاغية سأصبغ أسناني بالفحم وأحكي
في اليوم السابع ..
وقف الزمن الآتي في خطوي يتمدد في البحر
يتكور في جمر الشمس ...
يطلّ من الباب الخلفي لعاصفة القدس
ويمشي في المتجمد من وجهي ... ويضيؤك قافلة الهمّ ...
فألمم وقع خطاه على اليمّ ...
وألمم كم لوّحت الشمس وجوها وشجون ...
وألمم كفا ضاق لظاها فاشتعلت ريحا مخضرّة ...
وانفجرت ريح مخضره
تمشي والشارع يعرف وقع خطاها ...
والضجة تعرف وقع خطاها ...
والموكب يعرف وقع خطاها ...
والبحر يهوج يهوج ...
ويفجّر أطواق الثوره !

دمشق



المماليك يعودون خلسة ...

د. محمد المنسي قنديل

في منتصف الاسفلت وقفنا . أشارت سامية للمدينة . قالت : كل شيء يرعبني . يبعث داخلي شعوراً مثل البكاء .. ومثل الجوع .. كل مرة أراها كأنها المرة الاولى . وكأنه احساس الرعب الاول ..

معا كنا في منتصف الاسفلت . غاية في الغربة والتباعد . قلت : يا سامية انت حزينة أكثر مما ينبغي.

وسرنا قليلا .. قالت : نلتقي في المساء.. قلت : نلتقي في المساء .. وافترقنا .

أرى المدينة أمام عينيّ . عمارات وحارات رطبة . أشمها . رائحة اللحوم الفاسدة والكشري وحمص الشام . أسمعها . صرير عجلات الترام . احتضار طيور مذبوحة .. ولكنني أغمض عيني ، فلا أرى الا صحراء ممتدة قاحلة . انني أكره النوم ولحظة الاظلام. وأخشى ركوب الاتوبيسات المزدحمة حتى لا يسمع الجميع ما يضج في داخلي . وأشهد ان المطر يكون في أول الشتاء رائقا وفي آخر الشتاء يكون مائلا للاخضرار وبه بعض العفونة . يقطر في الكوب الذي أمامي .. كأن هذا الشاي الاخضر هو بقايا الشتاء الذي لا ينتهي .

المقهى خال . لكنني لم أسمع صوت المعلم «نايف» وهو يناديني .. يغمزني بمبسم « الشيشة » حتى انتبهت اليه . قال وهو ينفث دفعة كبيرة من الدخان :

— أريدك في أمر هام ..

تناول آخر رشفة من كوب الشاي وبعض التفل .

— ذهبت الى حجرتك .. ذهبت الى منزل خطيبتك ولم أجد أحدا .. الامر هام فعلا ..

— ...

— معي فص أفيون .. سوف نؤجله لما بعد عودتنا .. مشوار بسيط داخل « درب الانسية » ..

مقهى ضيق . حارة ضيقة . أناس لا يكفّون عن الحركة والتكاثر وسط هذا الحيز البالغ الضيق . يتنفسون فتتلوث الجدران . نقوش غائرة . أياد مبتورة . أوعية قديمة . ثم يأتي المساء . أعرف ذلك عندما يخرج الحاج « زينهم » من دكانه حاملا قدر « حمص الشام » الضخم ويلقي بمحتوياته لأبعد ما يستطيع ، فتتناثر الحبوب الصفراء — كهرمان عطن — بين شقوق أحجار الطريق . أعرف ذلك أيضا عندما تقسم مئذنة القلعة الشمس الى نصفين .. وتتسلل الاشعة خلال شعر سامية دون أن تعطيه لونا محددا .. وتعود العصافير متعبة فلا تجد عشا الا في الزنازين الرطبة ..

حمل الجرسون « الشيشة » والصينية . دفع المعلم نايف الحساب وسرنا . أرض رمادية . سحب سوداء . درب جانبي . غبار . أطفال يلهثون .. عاود نايف الالحاح :

— لن تندم لانك أتيت معي .. هذا سري الذي لم أقله لاحد .

رأيت ان هذا البيت على وشك الانهيار . وهذه الوكالة . وهذا المسجد القديم . رأيت ان المشربيات المتداعية يسكنها أناس وفئران كاملو العدد . يتقاتلون على الفتات فتتصاعد رائحة الدم الطازج مختلطة مع رائحة الطبيخ والغسيل بالصابون الرخيص .. رأيت هذا فقلت : أود الصعود الى الجبل ..

سرّ نايف لانني تكلمت اخيرا .. قال :

— ما زال الوقت مبكرا للصعود .. انظر ..

أشار للامام . شخص يجلس على عتبة أحد البيوت المتهالكة . جلباب فوق جاكتة داكنة . كوفية بيضاء يحوطها عقال . جمع من الاطفال المتسخين يلتفون حوله. لم يبد عليه انه أحسّ باقترابنا . بوقوفنا أمامه . ملامحه عجوز . لحيته مدببة . ابتسامته ما بين السخرية والذهول يتأمل الاطفال ويشم الغبار ويرصد كل شيء .. قال نايف مذهولا :

— ما الذي جاء به الى هذا الدرب المنعزل ؟

فكرت .. انهم كثيرون حتى أنهـم يوجدون في كل مكان ..

ـ هل نتحدث معه ؟

ـ كلا .. هو يعرف طريقه جيدا بلا شك ..

انتهى الدرب الجانبي وظهرت حافـة الجبل . دخلنا تحت تعريشة من الاخشاب القديمة . أحاطتنـا جدران متهدمة ملطخة بالسناج . منشور عليهـا جلود حديثة السلخ ، لم يزل الدم المختلط بالملح يسيل فوقها في خطوط متعرجة .. بعيدا في حضن الجبل ، تلتف ظلال اناس حول نيران متفرقة . تحمل سامية المصباح الغازي وتهبط أمامي . تحذرني مـن الدرج المكسور . وفي فناء الدار تزداد حدة رائحة دورة المياه الموجودة تحت السلم ، حتى ان رغبتي في لمسها تموت . نتبادل تحية فاترة ونفترق ..

قال نايف :

ـ لقد احتطت للامر.. هناك فانوس في مكان ما.

حركته الدؤوب وحفيف ثيـابه يبعثان الاضطراب في الظلمة التي تحيط بنا . تساءلت :

ـ هذا هو المكان ؟

ـ أجل .. ولكن علينا أن نجد الفانوس أولا .

تلمست حائطا واستندت اليه. نايف يشعل أعواد الثقاب والبرودة المتكاثفة تطفئها . مع كـل توهج كنت ألمح جسده الضخم وهو يفتش بين الاحجار . يسطـع المكان فأشم رائحة المقابر .. هتف نايف :

ـ وجدت الفانوس ..

اشتعل عود آخر . رأيت الفانوس . ونايف يدخل يده ويشعل الذبالة . دبّت في المكـــان حركة مـــن الظلال ظلت رابضة أمامنا والرائحة الثقيلة تتكاثف .. قلت في ضيق :

ـ ماذا تريد ؟ لماذا جئت بي الى هذا المكان ؟

رفع الفانوس وقال في هدوء :

ـ سوف ترى كل شيء ..

الهواء يرسل صوتا خافتا . تأوهات متواصلة . الفانوس يصنع دائرة مـــن الضوء تكشف عن خراب . تغوص أقدامنا في تراب ناعم . ونتخطى عروقا خشبية منخورة ، سقوفا مائلة ، أواني فخـارية ، بقايا أثاث . تشدني كتلة الظلام رغم تربص الخطر . من هذا المكان تمتد جذور الحطام . بوابات متداعيـة . فتحات تؤدي الى مآوي غامضة تحت الارض . نايف يدمدم . والضوء يرتعد .. هذا سري .. أسأله أين نحن ؟ فلا يجيب . نواصل السير . يختفي الحطام فجأة وتصبـح الارض مستوية .. محتدة .. رائعة .. قلت مدهوشا :

ـ هذه أرض مزروعة ؟

ـ كلا ..

خيّل اليّ انني ارى نباتات غليظـة وقد شقت الارض .. أشرت في حيرة خائفة :

ـ ولكن .. هذه ؟!

قاطعني بصوت باتر :

ـ هذه عظام آدمية ..

ـ ماذا ؟

ـ تحسسها بنفسك ..

انحنيت . مددت أصابعي . لمسة خفيفة . برودة. كانت صلبة . ناعمــة . تضوي تحت تأثير الفانوس وتترك على أطراف أصابعي طبقة مـن الغبار الناعم .. قلت مذهولا :

ـ انها عظام فعلا ..

لوح بالفانوس فتحركت دائرة الضوء . اكتسى صوته بنبرة غريبة :

ـ يبدو ان القيامة ستقوم في هذا المكان ..

كنت ألهث خلف دائرة الضـــوء . خلف رائحة الموت المؤكد . والعظـــام تتشابك وتخترق الارض . ضلوع نحيلة متماسكة واحد فوق الآخر. فقرات الرقبة متراصة أيضا دون رأس . سيقان ممـــددة . مرتبة الاعضاء في الاماكن الصحيحة . ذراع بارزة بكل طولها. الاصابع المدببة تشير الى شيء بعيد . جماجم مرفوعة في مواجهتنا . تتابعنا مـــن خلال حدقاتها الفارغة . هياكل كاملة ، مسجاة أو مستندة الـى الصبار . كأن كل شيء في انتظار حدوث شيء ما . كلمة أو اشارة غامضة حتى تدب فيها الحياة .. كنت مذهولا ..

ـ أي اناس هؤلاء ؟ أي مقبرة تلك ؟

نايف يسير .. لا اقوى على مواجهـة ما تكشف عنه دائرة الضوء . ولا أقوى علىاغماض عينيّ .. قال :

ـ أنظر ما سيأتي .. سوف يوضح الامر قليلا ..

رفع ذراعه فاتسعت دائرة الضوء . ازدحم المكان بأشياء أكثر غرابة . سيوف صدئة. مقابضها متوهجة. رماح طويلة مشروعة الاسنة . دروع حديدية متكومـة في تلال متفرقة . ثيـــاب . عباءات حريرية موشاة بالقصب وخيوط الذهب . أردية . سترات . عمامات ضخمـة . زرد متـداخل الحلقـات . قمصان نحاسية يعلوها الاخضرار . خوذات ذات زوائد حديدية لحماية الانف والعينين . أحذية طويلة الرقبة . صنادل مطعمة بالمسامير . خطافات وكرابيج وسهام صغيرة وخنـاجر مدببة الاطراف . وسروج ، ساكنة متربة . يفوح منها عفن ثقيل . تنبض بلحظات الترقب . كنت أدور حول نفسي .. ونايف يجلس فوق احد الاحجار . يرقبني.. سألنـي :

ـ هل فهمت ؟

ـ من هؤلاء الناس ؟

— ألم تفهم بعد ؟ ألم تشاهد هذه العظام البيضاء . الملابس . الدروع . السيوف ؟ كل ذلك لم يكن موجودا من قبل . لقد برزوا من جوف الارض شيئا فشيئا حتى ازدحم المكان بهم . من الافق الى الافق . انظر هذه الناحية سوف تشاهد هياكل من نوع مختلف . انها الخيول .. خيولهم .. مجمعة ومرتبة وتنتظر .. كل ذلك برز من جوف الارض .. من كل القبور القديمة .. العظام أولا .. ثم الملابس .. ثم السيوف.. كلها في الانتظار ..

— من هؤلاء الناس ؟

— انهم المماليك .. انهم يستعدون للعودة ..

انتصب واقفا . بدا جرمه الضخم والجبل الذي خلفه متساوي الطول . أشار الى كل الاتجاهات :

— لا يكفون عن الزحف . كانت العظام تبرز على حواف الجدران المهدمة .. والآن تملأ كل الخلاء .. سوف تزحف بين الناس وتملأ البيوت ..

اكتسب صوته عمقا غريبا . تجاوب مع الصدى الخافت كأنه نبوءة مؤكدة .. صحت به :

— هذا جنون .. انك تهذي !

— كل هذياني أمامك .. تلمسه بيدك .. واهذ معي ..

انطفأ المصباح . أخذنا نتعثر عائدين . كنت ألهث ونايف يتبعني .. أسمع غمغماتهم تتعالى .. تتنادى بألقاب التفخيم .. والكلمات التركمانية تستعيد حيويتها . حمحمات الخيل وصليل السيوف والبياده يجلون أطراف الاسنة ويربطون السروج ويصفون السهام .. قال نايف :

— لقد تركنا الفانوس خلفنا ولن نستطيع العودة..

واصلنا التخبط بين الانقاض . سمعت صوت ارتطام جسد نايف بالارض . ساعدته على النهوض . لم أتبين ملامحه لكنه كان يتألم .. ظللنا متماسكين . اجتزنا الدروب الضيقة والخرابات .. برز الجبل وكنت اعرف طريقي وسط دروبه .. مررنا ببقعة من الضوء فرأيت الدم يغطي جبهة نايف . هبّت أنفاس الجبل .. رائحة الصخور المفتتة والصهد . صعدنا . ساعدته على الجلوس فوق أحد الصخور وقلت :

— هذا خيال ..

قال وهو يتحسس جبهته :

— لماذا ترتعد اذن ؟

— كيف عرفت الامر ؟

— شهور طويلة وأنا ارقب بروز العظام . وظل الامر غامضا . كل يوم أجلس الساعات الطويلة أراقبها وهي تشق الارض وأسمع التقلصات الخشنة .

أدخل يده في جيبه . حرك أصابعه . سمعت خشخشة السلوفان ، مد يده . ناولني قطعة وأخذ لنفسه القطعة الثانية .. قلت :

— انها كبيرة ..

— لن تساعدنا حتى ولو كانت الضعف ..

وضعتها في فمي . أحسست مذاقها المر اللاذع وهي تلتصق أسفل لساني . توقفت عن الكلام ، وكل منا يحرك فكيه ببطء . فكرت . قد تمدنا ببعض الشجاعة . بدأت عملية الذوبان وانتشرت المرارة الرائعة . أصبحت أضواء الجبل أكثر قربا وتألقا . هبّت ريح رخية فتناثر شعر سامية مثل كلمات التمائم . وماتت الشمس — التي أعشقها وأخافها — في مغارات المقطم . والحمامات في الحواري تشعل وقودها فيتصاعد البخار يلف أجساد النساء في النهار وأجساد الرجال في الليل ويمضي بينهما محملا ببذور الخصوبة. صانعو الحصير يجدلون العصي الملونة ويرسمون خلال النسيج صورا للكعبة وأشكالا لطيور ممزقة الاجنحة . رواد المقاهي الفقيرة يتباحثون في تدبير مصارعة تفوز فيها كلّ الديوك الهندية المتألقة . حتى العظام تبرز ناصعة الالوان وهدير المماليك ينساب مختلطا مع غناء القيان ودق دفوف الجواري وضحكات سامية . أحاول تقبيلها فتفلت مني وترشقني بوردة حمراء . ارفع قدمي من الوحل . يغمغم نايف وينصرف .. يهتف رجل من أقصى الحارة :

— وحّد ...

فأرد عليه بخوف :

— لا اله الا الله ..

يشهر الرجل سيفه ويرشقه في الجدار ثم يخلع عمامته ويعلقها على المقبض .

فناء الدار . الدرج المتكسر . غرفتي . الفراش المشعث ، والكتب المتناثرة . الصور الملصقة فوق كل جدار . العالم الصامت الكئيب المعادي في اغلب الاحيان . صورة سامية تحاول الابتسام . لو انني نظرت تحت السرير لرأيت العظام الملونة . النافذة مفتوحة تكشف عن المئذنة المكسورة التي تسكنها طيور سوداء .

سوف أنام حتى تشرق شمس جديدة لم تشرق من قبل . أحلم بمدن تبنى من جديد . بشوارع جديدة تبدأ من الصحراء وتنتهي في البحر . صنعت كوبا من الشاي . أخرجت أوراقا قديمة .. قصائد لم تتم . ورسائل لم ترسل .. وتذكارات فقدت تواريخها .. عالمي العاري الضلوع .. لكن الطيور فوق المئذنة المكسورة تصرخ . والاطفال يختنقون في البدرومات والربوع القديمة .. أي بعث هذا ؟

تعالى صوت رفيع يناديني . نظرت من النافذة .

محمد أخو سامية الصغير يقف في وسط الشارع ويشير بذراعه في خوف واضح :
ـ أبي وأمي يريدانك ..
ـ ماذا ؟
ـ انزل سريعا ..
سوف يقودني هو أيضا الى مقبرة أخرى ؟

هبطت . كان مفزوعا. ثمة شيء حدث لسامية.. لم أسأله .. اخذت ادندن بأغنية خافتة . ازدادتدرجة فزعه . قال شيئا لم أفهمه . زاد تأكدي ان ثمة شيئا قد حدث لسامية .

ليلة مشبعة بالموت . تحمل في كل لحظة اكتشافا مروعا . الاب ، والام يكرهانني .. ولكن هل تحبني سامية حقا ؟ أي شيء يحمل لي ولو قدرا ضئيلا من التآلف .. الحارات التي عشت فيها أيامي القلقة . البيوت المخربة . النجوم المختلطة بنفايات المجاري . لم نكن نسير في الطريق الى البيت . ظللت ادندن . قال في توتر :
ـ ألا تسألني الى أين نحن ذاهبان ؟..
ـ الى مقبرة أخرى .. هذه ليلة العظام الزاهية الاوان ..

باخت الاغنية . عبرنا بوابة القاضي . قبة قلاوون الضخمة تحتلّ السماء . العظام تصعد مع النباتات المتسلقة فوق واجهة البواكي . اتجهنا الى قسم البوليس . رمقنا العسكري بريبة . صعدنا الدرج الحجري . عبرنا ممرا ضيقا . دخلنا غرفة جانبية . زادت شدة الضوء . كان الضابط جالسا . والأم تبكي فوق اريكة بجانب « التخشيبة » والاب مستند الى الحاجز . نظروا كلهم اليّ . اتهموني للحظة خاطفة . دق العسكري الارض بحذائه .. زعق الاب والام في صوت واحد :
ـ انت ؟

رمقني الضابط بازدراء مبالغ فيه .. سأل :
ـ أنت خطيبها ؟
ـ ماذا حدث ؟
ـ منذ متى تمت خطبتكما ؟
ـ منذ أكثر من سنة .. ماذا حدث ؟

زعقت الام فجأة :
ـ لقد اختطفوها ..

خلف الضابط مباشرة لمحت أحد المماليك جالسا فوق سلة المهملات .. ثيابه مطرزة بالقصب وخيوط الذهب المتألقة . عمامته ضخمة . وشاربه يكاد يقسم وجهه الى نصفين . كان جالسا في هدوء واضعا سيفه على ركبتيه ويبرم شاربه في سرور . بحلقت فيه مدهوشا . التقت عينانا . غمز لي باحدى عينيه ..

قلت :
ـ انني .. لا أفهم ..

قال الضابط بلهجة رسمية :
ـ المدعوة سامية عبد التواب البالغة من العمر اثنين وعشرين عاما .. تغيبت عن بيتها منذ الامس .. هل لديك معلومات عن مكان وجودها ؟
ـ لا أعرف ..
ـ لقد بحث أبوها وأمها في بيوت الاقارب والاصحاب والمستشفيات والاقسام ولم يعثر لها على أي أثر .. هل لديك معلومات ؟
ـ لماذا لم يقل لي أحد .. لماذا لم يخبرني أحد من لحظتها ؟
ـ هناك من يقول انها اختطفت. اختطفها اشخاص مجهولون في سيارة مجهولة .. هل لديك معلومات ؟
ـ من الذي يقول ؟
ـ شهادات غير مؤكدة . أبوها وامها يقولان انه لم تكن في البيت أي خلافات . هل لديك معلومات عن سبب اختفائها ؟
ـ لم يكن بيننا أي خلافات ..

نظر الضابط الى الاب والام ليرى صدى اجاباتي. زعقت الام في هستيرية :
ـ أريد ابنتي ..

حاول محمد أن يهدئها . جلست في الجانب الآخر . نهض المملوك . سار وهو يتمايل . استند فوق الحاجز الخشبي . نفخ في وجهي . أنفاسه ثقيلة الرائحة . حرك فكه قليلا ثم بصق فوق المكتب . بصقة سوداء من اثر التبغ المضوغ .. قلت :
ـ ماذا سنفعل ؟

قال الاب بمرارة حقيقية :
ـ أنت السبب .. لقد ضاعت منا ومنك .. انت لا تستطيع المحافظة على شيء ..

قلت للضابط :
ـ هل أستطيع الانصراف ؟
ـ هل ستبحث عنها في أماكن محددة ؟
ـ لا أعرف .. انا متعب .. لا أعرف أين اذهب أو من أين أبدأ !

ولولت الام :
ـ فقدناها وانت السبب ..

قفز المملوك من فوق الحاجز الخشبي بحركة رشيقة رغم امتلاء جسده . أخرج سيفه وأخذ يحركه في الهواء حركات سريعة ليجرب مرونة معصمه . ثم وضعه في الغمد مرة أخرى . أشار برأسه في حركة متعالية :

ـ حضراتنا أمير الجيوش البراني .. تعال معي الى مغارات المقطم .. الليلة يتألق نجم السعد ..

قال محمد :

ـ أريد أن نذهب معا .. نبحث معا ..

ضحك المملوك في انشراح :

ـ عفارم.. عفارم.. هذا ولد جميل . هيا نأخذه معنا الى المغارة ..

صرخت :

ـ كلا .. لا أريد أحدا !

هبطت الدرج الحجري . وقفت وسط ميدان القاضي . أحسست بالعطش الشديد .. قال المملوك :

ـ ليس لك في الطيب نصيب ..

وعاد الى داخل القسم . كانت قبة قلاوون مثل خفاش مفرود الجناحين .. صرخت .. أين أنت يا سامية ؟.. البيوت جنب البيوت . وأحجار الطريق جنب أحجار الطريق .. وأنت بعيدة .. الربوع القديمة تهوي وأضلاعنا تتعرى والطيور تحتضر أثناء نومها .. فأين يمكن الذهاب ؟

جريت في الطريق الى بيتها . سوف أجدها في انتظاري . واقفة على أول السلم . تمسك المصباح الغازي لتحذرني من الدرج المكسور .. دفعت باب البيت . صعدت في الظلام . تعثرت في الدرج . شممت رائحة دورة المياه . وجدت الشقة مفتوحة . خالية . المصابيح ترتعد . غرفتها الضيقة . مشربية خشبية . دولاب في الحائط . الفساتين التي أحفظ لونها ، وأحفظ أماكن الرتوق الخفية في كل منها . السرير الضيق ، يزداد ضيقه كلما شاركها فيه أخوها محمد .. أدوات الزينة الرخيصة . المرآة نصف المعتمة . بقايا كتب الدراسة . بقايا هدايا كنت قد أحضرتها . أحس بأن ثمة من يتنفس . بتردد الانفاس الباردة .. ولكن.. لا أحد .. فتحت الدولاب.. نظرت تحت السرير .. رأيت العظام بارزة .. تركت الغرفة.. هبطت السلم .. تعثرت . شممت الرائحة .

المرة الاخيرة التي رأيت فيها سامية ، كنا على شاطىء النيل . كنت غريبا تحت الشمس وأمام النهر الفائض . الجرسون يشبه أمير الجيوش البراني . يبتسم . يحضر مشروبات باهظة الثمن. ناقصة السكر. ساعة كاملة بقيت فيها وحدي . أرقب طير الماء وهو يحلق في بطء دون أن يحرك جناحيه .. جاءت سامية متأخرة .. لم تعتذر . جلست . هتفت في ضيق . ما فائدة المدارس والتعليم ؟ أدركت اننا سوف ندخل معا احدى دوائر العذاب . رفعت يدها بالورقة التي كنت أحفظ شكلها جيدا .. دبلوم التجارة المعظم . منذ الصباح ، منذ كل الصباحات وهي تدور .. دكاكين وفنادق وخانات ووكالات . عطارون . بقالون . باعة الاقمشة والاحذية ومهربو العملات .. خلعت حذاءها فجأة . عرق وعفونة ثقيلة . اختلطت بكل ذرات الهواء الذي يهب من ناحية البحر . شمها الجرسون وعمال البوفيه وبائعو الفل الذابل . سائقو التاكسيات وعشاق المدارس .. كنت أرى ذرات الرائحة الداكنة وهي تتلوى في خيوط دقيقة .. كانت تتكلم . الحارة رطبة والبيت ضيق .. ووعودك بالغة المشقة .. قلت : البسي حذاءك وهيا ننصرف .. هذا مكان نظيف لدرجة الاختناق .. صرخت بي : « اصعد الجبل. كل الافيون. تحدث مع الشيخ عاشق الصخر .. لعله يفيدك بحكمة ما » . كانت أحلامها قاسية .. والشيخ يشكو لي من أحاسيس غريبة دنسة . كلما التف حوله المريدون تزايد هذا الاحساس . وانه في صميم الحفرة عندما يرتفع ايقاع الذكر وتذوب الاجساد وجدا يلهث في جوع ورغبة ..

ماذا أفعل يا سامية .. وأين أجدك ؟..

جامع قلاوون أمامي مرة أخرى . دفعت الباب الخارجي . زعقت في الطرقة الممتدة « يا سامية » .. طارت خفافيش وتمزق نسيج العنكبوت .. فتحت باب البهو .. كان المنبر متحطما . مائلا الى أحد الجوانب . والثريا متدلية خالية من المصابيح ، والاثاثات المنزلية تزحم كل الزوايا وتسد الطريق الى القبلة . ما بين الاعمدة الرخامية تمتد الحبال تحمل الملابس المغسولة . ترتفع الملاءات حتى تضع حواجز بين ركن وآخر ..

هل تكون سامية هنا ؟

أخذت أزيح الملاءات وأخوض وسط الاجساد النائمة . سرير منصوب ذو قوائم مرتفعة . رجل وامرأة هامدان . على الارض حصر ممزقة وأطفال نحاف . متداخلو الاعضاء كل في الآخر . هل هناك قدرا من الدفء ولو ضئيل . لكن الاحجار القديمة لا ترحم . تهمي من خلال الشقوق والآيات المحفورة برودة قاتلة .. أود أن أصرخ في الجميع حتى ينهضوا .. هدمت بيوتهم عبثا . استكانوا في صحون المساجد عبثا . أزيح الحاجز التاسع .. والعاشر والحادي عشر .. أطفال ينامون وعيونهم نصف مفتوحة . صبايا لا يسترهن شيء . رضيع يتبول على نفسه وأمير الجيوش البراني يضاجع امرأة . والمرأة تبحلق مذعورة .

أهذه عين سامية ؟

أمير الجيوش البراني يرفع رأسه وينظر الي . يقهقه في سعادة . والضحكة ترن وتخترق كل الاروقة. غمغم الاطفال وهم نيام . وظلت يد المرأة الداكنة فوق كتفه الشاهق البياض . جريت عبر البهو . والممر .

كان الرجلّ الذي قابلناه في أول الليل جالسا على الباب الخارجي .. قلت وأنا ألهث :
ــ هل رأيت سامية ؟

أشار على طول المدى.. جريت حتى باب الفتوح. رجعت الى بيت القاضي . سألت الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم . جدلوا من أسئلتي حصيرا ملونا . ورسموا طيورا تعاني الوحشة . صانعو الحلوى أخرجوا صواني البسبوسة محترقة الحواف. اوقفت الترامات المتهالكة. دخلت الربوع المجهولة والزوايا التي تسكنها العفاريت.. لا الشحاذون أجابوني ولا شيوخ الحارات ترفقوا بي .. فأين انت يا سامية ؟.. في أي شقة مفروشة .. في اي صحراء .. في اي نهر .. في اي سيارة .. في اي كباريه .. بين أي أيدي .. في أي الازمان تعودين ؟.. بأي قلب اراك .. نائمة .. مستيقظة .. مستمتعة بالحب .. طائعة .. مجبرة .. مغتصبة ؟

كانت السيارات تعبرنا معا . كنت تقولين لي : أنظر .. ان لهم القدرة على الحلم .. تقولين أحلامنا مثل ثوب ممزق .. اقول : لم اطلب منك أن تحلمي بي .. تقولين : أكتب قصائدك العتيقة .. أحلم بالدمار الشامل.. القصائد حبر وورق..العمارات خرسانية.. والسيارات من الصلب .. قلت : هل تحبينني ؟ قالت : أحبك ولكنني لا أستطيع أن أغمض عينيّ .. شممت رائحة قدميها خارجة من كل الشقوق القديمة .. سمعت صوتا . دخلت الربع الذي امامي . وجدت نايف معلقا فوق حائط .. يده مغلولة والدم ينزف من كل جسده .. قال بصوت متحشرج : لقد عاقبوني لاني افشيت السر .. قلت : عاقبوني أنا أيضا واختطفوا سامية . سوف أعود الى البيت . سأنام واغلق الباب من الداخل . سوف أكفّ عن كتابة الشعر ، والبحث خلف السراب ..

انصرفت منكس الرأس ، مقهورا . طوال الطريق أسمع الصهيل . ارى الغربان تحوم . تنتظر أوان سقوط الموتى . هل يمكن أن أغلق حجرتي وأكفّ عن سماع ما يدور في الخارج ؟ يا سامية .. أنت ترين انني لا أستطيع حتى أن أحلم بك .. المماليك يطاردونني ويوقعون العقاب بأصدقائي ..

زعق الفجر من فوق كل المآذن العتيقة . لم يجرؤ أحد على الصلاة . كانت المساجد مزدحمة بالنائمين . بدت طباشير الضوء الرمادي . هلّ يجرؤ أمير الجيوش البراني على مواجهتي تحت ضوء الشمس ؟.. دخلت البيوت . وقفت ألهث خلف الباب .. تطلعت للامام . كانت سامية جالسة على السلم . رفعت وجهها ببطء . حدقت فيّ بنظرة ثابتة . كأنها لا تراني . ولكن وميض عينيها خلق بيننا ما يشبه التعارف .. الشعر الطويل منسدل فوق كتفيها . لم يكن ممزقا ولا مشعثا . كان يلمع بوهن تحت الضوء الرمادي . وجهها الصغير المحدد التقاطيع ، لم يكن باكيا ، ولا مغتصبا .. كان هادئا .. مستسلما كأنما انتهت في التو لمسات خلقه . حول عينيها كانت دائرتان من السواد تكسران حدة هذا الصفاء . اقتربت .. جلست على درجة من السلم أسفل الدرجة التي تجلس عليها . يدها موضوعة فوق ركبتها ويفصل بينهما الفستان الداكن . كانت دبلتي الذهبية في اصبع يدها اليمنى .. لمست ثوبها .. قلت :
ــ ثوبك ممزق ..

خيل اليّ انني لن اسمع صوتها أبدا .. لكنها قالت في هدوء :
ــ يبدو ذلك .

كنت أحسّ بجفاف حلقها .. قلت :
ــ هل آذاك أحد ؟..

قالت بصلابة :
ــ أجل ..
ــ كم كانوا ؟
ــ اربعة ..
ــ مصريون ؟..
ــ مصريون .. أم عرب آخرون .. لا يهم ..

قلت ببلاهة :
ــ هل قاومت ؟

تنهدت . خيل لي انها ستبكي . لكنها لم تبك . كنت اخشى ان اطيل الاسئلة حتى لا تصمت .. وكنت أريد أن اعرف كل شيء .. لماذا لا تبكي ؟.. لماذا تبدو بهذا السكون ؟
ــ هل نصعد ؟

صعدنا .. جلسنا فوق مقعدين متباعدين :
ــ هل أنت جائعة ؟..
ــ كلا ..
ــ كيف حدث ذلك ؟

قالت : انا محقوقة . أحسست انها ستبكي . أمسكت يدها فسحبتها من يدي . قالت انهم كانوا أربعة في عربة خاصة .. وانها قاومت كثيرا ولكن الشارع كان خاليا .. وذكرت اسم أحد الشوارع الغريبة .. سألتها ما الذي كانت تفعله في هذا الشارع . قالت انها كانت تبحث عن عملٍ . حاولت احتضانها . كانت تشع من جسدها رائحة جديدة حتى انني افتقدت رائحة قدميها . كنا كطفلين بالغي التعاسة .. قالت :
ــ هل نهبط ؟

قلت : هل تودين العودة الى البيت ؟ قالت :

لا أدري .. واخذت تحدق من خلال النافذة . اختفى اللـــون الرمادي وأصبحت السماء مشبعة بحمـــرة الشروق .. قالت :

ـ انني أكره الشمس ..

فكرت .. سوف تأتي الشمس . ويرى الجميـع جثة نايف .. ويردد الاطفال حكاية سامية .. وتنكشف عورة الطرقات الضيقة .. عادت تردد :

ـ انني أكره الجميع ..

قلت ببلاهة حقيقية :

ـ حتى أنا ؟

قالت بتصميم بارد :

ـ أنت أولهم .. أنت أسوأهم .. أنت تتظـاهر بالشفقة اللعينة ولا تعطيني سوى الوعود والكلمات ..

قلت عاجزا :

ـ لكنك كنت تعرفين .. تعرفين منذ البداية .. لم أكذب ..

ـ كل شيء يكذب .. كلمـاتك .. وأحلامك .. والنوم في العراء .. أكره الفئران وهي تقرض فـي منتصف الليل . وأكره لذعة البراغيث . ورائحة دورة المياه الكريهة .. وحديث أمي عن الصبر ..

انني أكره مثلك هذه الاشياء .. ولكن الكراهيـة المجردة شر ..

ـ ليست كراهيتي مجردة .. انني أكرهك عـلى وجه التحديد .. أكره الكتب المرصوصة في كل ركن .. وأكره الصور المعلقة فوق الجدران .

ضمت قبضتها ووقفت في منتصف الغرفة كأنما تحاول أن تستنزل فوقي لعنـات مجهولة .. لكنهـا انفجرت بالبكاء .. هوت على ركبتيها وأخذت تنشج في صوت مسموع .. اقتربت منها بتردد .. وضعت يدي على ظهرها . تناولتها وأخذت أغمرهـا بالقبل . احتضنتها وأخذنا نبكي معا .. قالت : سامحني .. أنا طفلتك الصغيرة .. قلت : يا طفلتي .. يا حبيبتي .. انني أعرف السبب.. انهم المماليك وقد عادوا خلسة..

انهم يسحبون الارض من تحتنـــا .. يهدمون دورنا ويجعلوننا نأوي الى المساجـد . يختطفون نساءنـا ويرغموننا على الغفـــران القهري . يأخذون أقواتنـا ويتركوننا نتصارع حول الفتات .. يا صغيرتي .. لقد عادوا .. قالت : أنت مجنون .. قلت : بـل انا النبي ايليا .. ونايف كان المعمداني .. والآن يمتد دمه عبـر الطرقات يحمل البشارة والنـــذير .. انتفضت .. تخلصت من ذراعي .. قالت :

ـ لن أعود الى بيتنا ..

قلت :

ـ سأتزوجك .. سنعيش في هذا المكان ..

ـ كلا .. ليس في استطاعتي الزواج .. لـــن ارضى بمثل هذا المكان ..

قلت في غيظ وتهكم :

ـ أعجبتك الشقة المفروشة اذن ؟

ـ لن أتنفس هذا الهواء مرة أخرى ..

قلت وانا أريد أن أحسم الموقف :

ـ هل تحبينني .. أم لا ؟

صرخت : ماذا يعني هذا الا مزيدا من الاستسلام.

ـ لن نستسلم .. سوف نحاول معا ..

ـ نحاول .. نحاول .. ما فائـــدة المحاولة ؟.. لا استطيع مواصلة الحياة هنا بعد هذه اللحظة ..

اذهبي اذن .. دعيهم يختطفونك مرة أخرى ..

ـ ومن قال انهم اختطفوني ؟

قلت مذهولا :

ـ ماذا حدث اذن ؟

رايت أمير الجيوش البراني جالسا على حافـــة النافذة ، غير مبال بنا . يمسك غليونا طويـلا ويحاول اشعاله وينفث دفعات من الـــدخان المتقطع . كانت الشمس تصعد من خلفه في هدوء قاتل . سادت لحظة من الصمت . جلست سامية فوق الكرسي .. قالت :

ـ أنا التي ذهبت معهم .

القاهرة



قصيدتان

حسين جليل

١ ـ طائر الليل :

في غبش الاسحار ... يفارقني ،
يستبق الفجر ... وحيدا
يرحل عني ،
يدور على الغابات الحجرية ،
ويحوم بعيدا
حول تلال جليد الاحياء القطبية ،
بين الانهار المنسية ،
والجزر المنفيه .
وقبيل سقوط الجمرة من منقار النسر.. الى البحر،
يعود الى مخبأه السري ،
فألمح في عينيه اللاهثتين ،
دخان شجيرات الورد المحروقة ،
فيما أسمع في خفق جناحيه المرتجفين ،
أصداء اغان ضوئيه ،
انشدها ، عبر الاسوار الصخريه ،
عشاق ... ما زالوا ينتظرون
طلوع القمر المطعون
بخنجر قرصان الحريه .
.... آه من طائر ليل
يسكن قلبي .

٢ ـ ذاكرة الصمت :

وجهي ... حين ولدت ،
وحين عشقت ،
وحين رايت ، على كف تطلع من جسد الارض ،
لؤلؤة حمراء
تتوهج بين القمم الجرداء .
وحين سمعت أنين الاشجار ،
بكاء الانهار .
وحين انشقت بين ضلوعي ،
صخرة حزني .. عن زنبقة من نار
فكان الشعر ،
وكان السجن ،
وكان المنفى ،
وكان عذاب الصمت .
وحين تدحرج رأسي بين الكلمات العذراء .
وحين تسلقت جبال الموت ،
الى قمة حبي .
وحين تلألأ قلبي ،
فعبرت الاسوار
ورأيت الوجه الآخر للاقمار ،
ودخلت الى أرض الاسرار ،
فارتعش السهم الراقد كالافعى في كبدي ،
وطارت ، في الريح ، لؤلؤة
كانت تتألق ، بين الاشواك السوداء ،
فوق يدي
فبدأت بعيدا عن آلهتي العاقر ،
بين العشبة والوردة ،
.. وذرة رمل وقطرة ماء ،
اغمض عينيّ ،
واغرب عن ذاكرتي ،
كيما أرقب أنثى عارية ،
تحمل رأس غزال ... ما زالت تتهامس عيناه
اراها ... تتأود حافية
تتهافت في الريح .. جدائلها الخضراء
فيما تتخافت في الظلماء
أضواء زرقاء .
...... ،
وجهي الاول ،
ما زال على عنقي ،
وجه يتيم ... يحلم
ان يطلع في ليل العالم ،
قمر الغرباء .
يحلم ،
ان تورق اشجار الحب ،
وأن ......
لا يقطع سيف
أعناق الشعراء .

بغداد

اشراقات رابعة

شاكر لعيبي

- ١ -

المدينة نامت ، وعمالها الساهرون على المطبعه
هجعوا في كتاب دقيق الحروف ، سوى رابعه
خرجت في الدروب ، وكانت مبللة
وتحمل في راحتيها الصباح برفق خجول
وكانت تجوب بغير هدى
ثم يتبعها هدهد لا ينام
ويتبعها الورد والنافذه
ويطاردها الحالمون
المدينة نامت وتجارها الرابحون ، سوى رابعه
تتحفى على العشب ، تركض في نفسها
تتبهل للارض ، ثم ترى ثديها نائما في الغصون
ترى في الغيوم وعولا تفرّ اليها
وفي الصخر لبلابة تتمرى عليها
وكانت تفتّح ما يتفتح في جسمها
فتفرّ اليه الفراشة ،
يأتي اليه القرنفل ، تنفلق الحبة الذهبية فيه
ورابعة تستجمّ ، المدينة مقفلة ، والمساء كئيب
غير ان الهواء يرافقها ، والهموم تفارقها
الحديقة نامت تتنفس في دعة
والطيور تحدق في رابعه
انها عقدت ثوبها بدلال
نفضت شعرها بسخاء
واحتفت بطفولتها الغائبه
انها انتفضت في الظلام الحزين ودارت
وكانت تحاصرها ليلة رائعه .

- ٢ -

المدينة تنهض ، تسعى على عجل للفطور، سوى رابعه
تشرب الشاي في كسل لا يليق بها
تحتذي صندلا أحمرا
تطعم السنديانة ماء قراحا
تمر على قفص اقفلته على بلبل سيحدق فيها بغير حياء
تنظف أسنانها بسواك سيعلق في شفتيها
وتطلق أثداءها لحظة للهواء العليل ،
المدينة تلهث في الماكنه
تتلوى بباعتها
والى السوق تخرج رابعه
تشتري ما تشتريه الكواعب
تغمز العابر الناحلا
وتدير رقاب الفضول اليها
وتتبعها الشرفات
ويتبعها الطير والحسرات
سوى انها ستردد أغنية
عن حبيب مضاع وباخرة من ورق
وستحكي لجارتها عن فتاها الصغير
وعن زهرة مسّها فاحترق

- ٣ -

من نشوتها تخرج رابعة
تنفض عن جفنيها الحلما
في نشوتها تهمس رابعة
(لا تطعنّي بالوردة ، لا ترميني بين حجار الياقوت)
معها تنتفض الاشجار ولا تملك شهقتها
(لا تطعنّي بالوردة ، لا تتركني بين وريقات التوت)
ورابعة تزهر
تتدحرج كالماسة فوق شراشفها
وتحاصرها القبلة

تجري في دمها الموجة
فيها البحر وليس لديه أنوثتها
والعريانة رابعة في وحدتها مثل التفاحة تجلس
وتحسّ بآثار فم يلثمها في الرقبة
هل في البيت سوى قطّ يتخفى ، والعتمه

— ٤ —

ورابع تلقي على كتفيها خمارا من الياسمين
تجيء من الريف للحاضره
تغطي بساتينها بيديها
على حنكها وشم أخضر
وتغني على سكة ليس فيها سواها من الآدميين
ورابع قارورة للطيوب
وأثوابها يورق الزهر فيها وتحبو الغصون
ورابع تدخل للحاضره
يرى حارس الخان خلخالها فيرنّق
يسمعه الجالسون على العتبه
فيحفون كوكبة حولها
تمد الشبابيك آذانها ، الشرفات أفاريزها
ويجيء اللصوص اليتامى
تجيء النباتات للكرنفال الجميل
هنا جلست رابعه
سحرت عاشقيها
فرنّ السكون ، ورن الصدى

— ٥ —

هي جاءت من الافق مملوءة بالنشيد
ومرت على المدرسه
ثم غنّت بها
واستدارت الى الحقل ، أغفت به ساعة
ثم كانت تحيط الزنابق في وجهها
هي انهمرت في القرى المطمئنه
وفي يدها مشعل كي ينير الخطى
في يديها زهور لكي يفرح العاشقون بها
أتت بحذاء عتيق
وصرّتها من قماش عتيق
أيقظت جدولا تحت خطوتها
وسرّت بها زهرات المضيق

— ٦ —

ورابع مفتونة بالفتى
كان يشرب قهوته بمحبتها
ويمر عليها ، يحدق فيها بغير كلام
وتسمع صورته في المساء
تشمّ خطاه البطيئة ، تقرأ أفكاره في الحصى
كان مكتنزا بالهدوء ، ويمسك بالعاصفه
ويراها على هيئة الارجوانة
يسمعها في هواء الطريق
ورابع مفتونة بالفتى
كان قد نام في المطبعه
فوق جرح خفيف
كان قد رنّ في أذنها كالجرس
استحى من يديها المضاءة في شعره
ثم قبّلها في اللجين البديع
وقد ملأت كفّه نرجسا
واليه رمت بنظارتها
فمضى كصبيّ بهيج ...

— ٧ —

ورابعة أبدا لا تشيخ
الخيول القوية شاخت
المدينة شاخت ، حوانيتها انطفأت
شاخ باعتها ، وحدائقها غمرت بالخريف
كل شيء سواها عجوز
وكل فتاة سواها تشيخ
هي الآن مغمورة بالفتوة
جالسة بالندى ، تتموج كالسنبله
ويشاهدها السابله
متوجسة بالرغيف

بغداد



بحثا عن العقل خلف ستائر الاحساس

مجاهد عبد المنعم مجاهد

تشير مجموعة «بيت في الريح» * للاديب الراحل ضياء الشرقاوي عدة تساؤلات اكثر مما تثير عدة اجابات .. فالمجموعة علامة استفهام كبيرة تجاه مجموعة من القضايا الفنية والفكرية على السواء ..

ان الافق الذي يخيم على هذه المجموعة القصصية هو أفق عالم متشييء اصبح فيه الانسان مغتربا وتحول الى مجرد شيء من الاشياء .. انه عالم حضارة منهارة ومدنية مزقت العلاقات الانسانية .. بل هي مدنية لم تبق داخلها على أية علاقات .. في هذا العالم يجد الانسان نفسه وحيدا في العراء .. يسكن غرفة في عمارة لكنه لا يرى الا ثعبانا هو ثعبان المدينة يحدق فيه من وراء الزجاج .. واصبح كل هم الانسان مراقبة هذا الثعبان الذي ليس الا تعقد المجتمع وفقدانه لادميته وتحوله الى اداة رعب للانسان الوحيد المقذوف به في العراء ..

ان عالم ضياء الشرقاوي عالم فيه الانسان مطارد دائما: مطارد برجال منتصف الليل الذين يحولون الناس الى اشخاص مصابة بجنون العظام .. وهي تهرب وتهرب ولكنها تعود دائما الى من منه تهرب .. تعود الى رجال منتصف الليل .. وهم خلال المطاردة يحلمون بزمان قادم لكنه زمن لعين ، هو زمن رجال منتصف الليل .

وفي هذا الزمن اللعين ليس للانسان بيت ، فبيته في الريح في مراكب لا تستريح .. فالحرية التي يبحث عنها الانسان غائبة .. ولا يملك الانسان الا ان ينشد الى حبل انسان كسيح فوق معقد فالزمن زمن التقييد الى كرسي ذي عجلات لا يملك الانسان منه فرارا ..

وفي هذا الزمن اللعين أيضا العلاقات الانسانية والتواصل الانساني مطقوع .. الانسانة نائمة على «شيزلونج» .. والانسان الآخر مسترخ في كرسيه .. ولا تواصل .. والتحولات داخل الانسان ليست الا تحولات فقدانه للدفء البشري ..

وفي هذا الزمن اللعين ليس الناس الا ورقا كرتونيا .. شعراء مجوفين ينشدون المستحيل عن غد للشباب للشعراء يتفجرون كالقنابل لكن المخلوقات سقيت بسم" الاموات الذي لا يرى .. وهذا العالم أصبح كلوحات الطبيعة الصامتة ، البشر فيه مجرد كؤوس بيرة وقطع من ثلج والعواطف ميتة ..

وهذا الزمن اللعين هو زمن الانفصال والعوالم المتباعدة .. عالم طلبة ثائرين مفصول عن عالم أناس باحثين عن جنس يلتقط وسط الطرقات .. عالم يجذب الانسان فيه الانسانة داخل احدى دورات المياه في مقهى عام ..

والعالم اللعين يزداد جحيمه .. وعلاقات الداخل فيه حولت الانسان الى وحش حتى انه يحبس فيه الثعبان مع العصافير الرقيقة في قفص واحد .. ولا يكتفي الانسان بقسوته الداخلية .. بل هو ينقل هذه القسوة الى الآخرين حتى تصبح علاقات الداخل واحدة ..

وهكذا يبني ضياء الشرقاوي عالما لم يعد عالم العصر الجميل .. أصبحنا نعيش على هامش هذا العصر الجميل .. أصبحنا نعيش في عماراته الحضارية التي أفقدت الانسان انسانيته ولم تبق منه سوى فضلاته .. ولم تبق له علاقات دافئة سوى أن يعري الانسان نفسه أمام الآخر الا ليريه فضلاته .. انه عالم السكنى في الطوابق العلوية حيث يفقد الضوء ويختلط النهار والليل وتضيع آدمية الانسان في الطابق الثالث والثلاثين وحيث تقرأ الصحف نفسها عدة أيام لانها خالية من الحوادث الجديدة وحيث ينتهي الانسان في جردل تنحط" فيه آدميته .. انه عالم التشيؤ وغربة الذات وتصبح الحياة فصلا في جحيم .. اذا حدث فيه شيء وردي فهو مجرد حلم وردي عابر يصحو منه الانسان على لهب جحيم العلاقات المتشيئة ولا تبقى الا أفراح الجسد لكنها أفراح مالكة هذه العمارة الرامزة للمدينة المتشيئة والتي هي أشبه بأخطبوط يسلب الساكنين ذواتهم الانسانية .. انه عالم التضليل وما من أحد من سكان المبنى يعرف ان المرأة العجوز ـ الحضارة البالية ـ هي صاحبة هذه العمارة ـ الحضارة .. حيث ترتكب الجرائم التي لا يعلم أحد عنها شيئا واذا عرفت تقطعت الاوصال لاكتشافها . فأسفل العمارة ـ الحضارة مقطوع الصلة بأعلى العمارة ـ الحضارة .. وربما مالكتها قد ماتت منذ زمن وأكلتها الديدان دون

---

* صدرت هذه المجموعة عن دار المعارف ـ ١٩٧٨ .

أن يعي سكانها .. لكنها ما زالت تمتلكها بكل المدنيــة المتشيئة حيث الجميع في جحيم .

لقد استطاع ضياء الشرقاوي أن يرسم عالما مـن الجحيم لا أبواب فيه ولا شبابيك .. وما من بارقــة ضوء .. فالبشر حجارة والعلاقات غائبة والناس فيـه دمى تتحرك بحساب وتتكــلم بحساب وليست لهـا أعماق .. ولهذا خيم الاعتام على هذا العالم فكرا وفنـا على السواء .

لقد اختار ضياء الشرقاوي طريقـا خاصا لـه يعتمد على رصد العالم من خلال الانطباعات .. وهـي انطباعات متناثرة متباعدة .. وقف عند حدود الوصف الظاهري للحضارة والمدنية .. من خلال الاحساس يرى العالم ثعبانا .. من خلال الاحساس يرى العصر الجميل مأساة .. من خلال الاحساس لم يبق حتى التواصـل الجنسي .. انه الرصد الحسّي .. لقـد جرد المؤلف الشخصيات من هويتهم .. من زمانيتهم .. من مكانيتهم على طريقة فرانز كافكا .. لكن كافكا عندما جعل أبطاله شفرات أبقى وسط تشيؤ أبطاله شيئا غير متشيىء هو رفض هؤلاء الابطال ـ الشفرات لهذا العالم الجحيمي .. واذا كان بطل قصته « التحول » يمـوت وهو صرصار يكنس وسط النفايات فانه يدين هذا العالم .. ان كافكا يتابع تراث الفن العظيم وهـو ان **العمل الفني لا بد أن يحمل دلالة أخلاقية** لانه موجه للشعور .. أما عـالم ضياء الشرقاوي فهو وصف من خلال المنظور الطبيعـي للعالم المتشيىء دون أن يحمل ادانة له .. السبب فـي هذا انه لم يطرح علل وأسباب هذه العلاقات اللاانسانية المتشيئة .. وأرسطو حدثنا منذ القديم ان الفن تعبير عن المستحيل الممكن لا الممكن المستحيل .. والمستحيل الممكن مثل بطل كافكا الصرصار مستحيل أن يحـدث عمليا لكنه يمكن أن يحدث نفسيا لان عالم الموظف أصبح جحيما بيوقراطيا والاسباب والعلل كامنة من الداخل .. وأرسطو ينص على ضرورة طرح العلل والاسباب القائمة بالضرورة أو بالرجحان لان هذا يجعل القارىء يستنير ويتعلم .. وقد تمكن كافكا من رصد علل وأسباب عالم التشيؤ من خلال رصد الحياة المكتبية ، أما عالم ضياء الشرقاوي فهو لا يطرح العلل والاسباب ولهــذا يقف عند حدود الرصد الخارجي .. ولقد حـدثنا هيغل : **ان الفن هو العقـــل وهو يتبدى من خلف ستـائر الاحساس** .. والعقل عنـد هيغل ليس مجرد ملكـة للمعرفة .. **ان العقل عنـــد هيغل هو حركة الحيـاة وسيرورتها ، انه الحياة وهي تستشعر الحياة وتنـزع الغربة عن العالم** .. فكأن الفن تعبير عن سيرورة الحياة من خلف الرصيد الاحساسي .. أما عــالم ضيـاء الشرقاوي فهو واقف عند حدود الرصد الاحساسي ، أما سيرورة الحياة فقد تجمدت .. قد يكون العــالم متشيئا .. لكن تشيئه جاء نتيجة « عملية » انتزع بها حتى هذا التشيؤ من شيء غير متشيىء .. من شيء انساني .. لكننا لا نجد هذا الشيء الانساني .. بـل نجد تعميما .

ان عالم ضياء الشرقاوي الفني هو عالم ما يزعم انه عالم الرواية الجديدة القائمة على جعل الاشياء هي الابطال .. لكنه عالم رواية جديدة تنسى ان بطل العمل الفني لا يمكن الا أن يكون الانسان ، ذلك الانسان الذي يضاعف ذاته في العمل الفني ليرى نفسه جميـلا .. ولهذا عبث ما يفعله ألن روب غرييه أو ناتالي سـاروت بزعم خلق رواية فينومينولوجية قائمة على العودة الى الاشياء .. انه التجديد الاجوف بزعـم خلق الروايـة الضد .. لقـد حدثنا جورج لوكاتش أن الفن معانقـة للخصوصية والعمومية .. ولقـد رأينا عند ضيـاء الشرقاوي الخصوصية فـي الافراد وسلوكهم وقـد فقدوا آدميتهم .. لكننـــا لم نر العمومية والافـراد يخرجون من حالتهم الفردية الى ادراك المصير حيث ان الفن يوقظ النائمين ويوحدهم .. فهيرقليطس يقول ان الأيقاظ عالمهم مشترك بينما النائم عـالمه وحده .. ان عالم ضياء الشرقاوي مصطبغ بصبغة من صمويل بيكيت حيث الحوار المتقطع والحوار المفقود ، لكن فن بيكيت يحمل دلالة احتجاج على هذا العالم الخالي من المعنى ، لان بيكيت رغم التجديد يفهم أن الفن كما قال أرسطـو استكمال للطبيعة ، استكمال لها بخلق الانسان الجميل، ومن هنا جاء احتجاج بيكيت على فقدان المعنى .. أمـا عـالم ضياء الشرقاوي فهو رصـد طبيعي مـن خـلال الانطباعات الحسية للعالم الذي فقد معناه لكنه لا يحمل ادانة بطرح العلل والاسباب وبث الحركـة فيه بحيث نلمح من خلال الحركة الى أين المسير ..

لقد توفرت لضياء الشرقاوي كل القدرات الفنية : من أسلوب فريد .. من براعة في التقاط الثورة الزمنية لرصد أحداث قصصه .. توفرت له قدرة التشويق .. توفرت له درجة من الاعتامية تثير الفضول .. توفرت له قدرة ادارة الحوار .. توفرت له قدرة اقتصاد التعبير الفني .. لكن مجموعته في الـوقت نفسه هي صيحـة تحذير لقصاصينا الجدد : ان التجـــديد قاصر على الاسلوب فقط وطريقة العرض البناء .. **لكن التجديد في الفن لا يستطيع أن ينزع فتيل الادانة الاخلاقية في العمل الفني وانه عقل واحساس متشابكان وبالتالي فان العمل الفني موجه لمنطقتي العقل والاحساس معا عند القارىء** .. أما أن ينفذ العمـل الفني الى منطقـة الاحساس فقط دون العقل وبشكل كلـه تعتيم فانـه يجعل مجموعة « بيت في الريح » تطرح أسئلة أكثر منها اجابات شكلا ومضمونا .

مدينة المقطم ـ القاهرة

مكاشفات على المسافة بين البوح والانعتاق

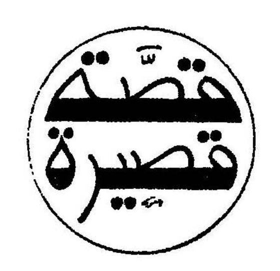
(مهداة الى الشاعر « محمد عفيفي مطر » الذي يخفي في صدره سر النهر ، وسر الاغاني الممنوعة) .

محمد يوسف

١) جئت – يا صاحبي النهر –
هذا قميصي عليه من الدم دائرةيخرج الخلق منها ويقتتلون ، فهذا « عليّ » ، وهذا « معاوية » (والقبائل تغسل في الضوء قفازها القزحي ، وتقذف أقنعة الافق الدائري الى الماء (والماء طمي وعشب ، وكيمياء خلق تسنبل للجدلية أتباعها)
هاهم الخلقُ يقتتلون
(القبائل تنشر اوجاعها)
كيف يا صاحبي النهر – أومن ان الدم الماء ليس الدم الماء ،
كيف أخبىء تحت قميصي مكاشفة الدم الماء ،
كيف أوحّد بيني وبينك ؟؟
(فيجسدي جذوة الطمي آه فكيف أوحد بينيوبينك والدم دائرة يخرج الخلقُ منها ويقتتلون ؟؟)
فأنا واحد يشطر الطميصدري فيزدوج الندّ والضد، تنفر مني طيور التوحد ، أدخل معترك الشدّ والجذب، يقتتل الندّ والضد ، كيف أوحّد بيني وبينك والخلقُ ينشطرون ، ويزدوجون ؟؟
فأنا واحدٌ يشطر الماء صدري فتخرج منه طيور التنافر، يشتبك الندّ والضد ،
يشتبك الضد والندّ
والماءُ بوحٌ ،
وجهدٌ ،
ووقـدُ
كيف – يا صاحبي النهر –
أقطع خيط قميصي ، وأقطع دائرة الرمد بالماء، والخلق يقتتلون ؟؟

٢) ها أنا في انعتاق الخلايا من الحزن أدخل فيك ،
أحدّق في وجهك المتشقق ،
ابصر فيك المدائن في زمن الجوع والقمع ،
أبصر وجه ابي المتشقق يشرق – في صفحة القلب – منفرطا بالسنابل ، والأرز ، والتوت والبرتقال
(والمدائن صلصلة وقتال)
ها أنا صاحبـي النّهر –
أدخل فيك أكوّر جسمي
(أكوّر حلمي)
فأبصر أمي تمدّ يديها بخبز وفاكهة وسؤال :
– هل النّهرُ يخذلنـا يا ترى
– وأجبني –
هل الحلم قد غاص في الماء حتى انشطرنا
فجسمك حلمٌ مذاب
وحلمكَ جسم مذابٌ
ودائرة الماء تمتدّ من كتفيَّ الى رحمي ،
ثم تمتد حتى يحاصرني الماء من مفرق الشعر للكتفين
فمـن يحسر الماء عني ،
ومن يكسر القيد تحت اليدين ؟؟

٣) جئت – يا صاحبي النّهر –
هذا ذراعي عليه من الدم وشم ، وحلم أحدّق فيـه فيفزعنـي
ان ثأر القبائل يمسخ بالنار حلمي .
(فهل يعتق الماء حلمي من النار ،
أم تأكل النار وشم ذراعي ،
ويجتمع الماء والنّار ضدّي ؟ ؟)
أنا واحد يشطر الماء حلمي
فيزدوج الماء والحلم
يزدوج الحلم واليتم
(والنهر برءٌ وسقم)
ها انا – صاحبي النهر –
أخفي بصدرك سنبلة وشعاعاً وبيتا من الطين
حين احدّق في وجهك المتشقق
ابصر نار القبائل تصفـر
حتى يغيبهـا الماء تحت القناع
فلا هي نارٌ ولا جذوة .
ها أنا – صاحبي النّهر –
أدخل فيك ،
أحدّق في وجهك المتشقق ،
ابصر فيك المدائن في زمن الجوع والقمع
أدرك اني قتيل يقيني .



الذهب الابيض

الى الفلاح المدرس المصري الهلالي السنوسي
خشيــة ان يحدث هــذا

خليل فاضل

وقف الاستاذ خير الله أمـــام السبورة . كتب بالخط الرقعي التاريخ الهجري على اليمين ، ثم الميلادي على اليسار ، وتحتهما في الوسط خطّ بالنسخ الكبير كلمة « تعبير » . (زراعة القطن في بلادنا . فوائدها . والمشاكل التي تعترضها) .

جلس التـــلاميذ بجلابيبهم الباهتة على الادراج الخشبية المتهالكة . شرعـــوا يكتبون ما تسعفهم بـه الذاكرة . كـــان الاستاذ قد سهل عليهم المهمة بوضع عناصر الموضوع وانحنى على بعضهم يناقش في همس.

انكبّ التلميذ محمد عبد الحكيم ، الشاحبالوجه الى درجة البياض ، انكب علـى كراسة التعبير وشرع يخط بخط كالمكتوب به المصحف الشريف (هكذا نصحه الخال عبد القـــادر) ، انكبّ يكتب ويكتب مستخدما الاساليب الجميلة والاستعارات والكنايات ، وكل مـــا التقطه من قراءاته المتعددة لسير الابطال عنترة بن شداد وسيف بن ذي يزن وغيرهما . انهى موضوعه بحرص ، وسلّم كراسته للاستاذ .

عاد بخطاه الوئيدة ، بقدميه الحافيتين المتشققتين الى درجه المدرسيّ وانتظر ...

ناداه الاستاذ خير الله . انفرجت أسارير محمد . لهث وهو ينصت بفرح لا نهائي الى كلمات المديح عـن موضوعه التعبيري كأفضل موضـــوع بالفصل .. خطّ الاستاذ بقلمه الاحمر علامة التسعة من عشرة وذيلهـــا بعبارة ثناء من سطرين . ربت على ظهر محمد مهنئا . دق الجرس معلنا انتهاء الحصة . طار محمد كالعصفور خارج المدرسة ، يجر قدميه الحافيتين المتشققتين .

... جرى الى الحقل حيث وقف أبوه مستنـدا على فأسه شامخا في وجـــه الشمس ، تتلألأ قطرات العرق على وجهه الاسمر . يفتر ثغره عن ابتسامة فرح. يلتقط انفاسه . يتلقف ابنه في حب غامر . يصحبـه بعيدا عن الشمس . تحت الشجرة الكبيرة . يسألـــه عن اخباره ..

حكى محمد لأبيه عن موضوع التعبير . أخرج له الكراس . وقال :

ـ انظر يابا تسعة من عشرة .. وسطرين تحيـــة وشكر ...

(ورغم ان الاب كان لا يعرف القراءة الا انه ميز خطوط الاستاذ خير الله الحمراء ورصع بها صـــدره وانتشى) .

فتح المنديل . اخرج الطعام. بدأ يتناوله مع ولده. تناول القلة ليشرب . غير انه توقف فجأة ليسأله :

ـ وعن ايه كان الموضوع ؟!

ـ عن زراعة القطن يابا .. فـــوايده ومشاكله

رد محمد بسرعة :

(شدد الولد على كلمة القطن وركز نظرته على ابيه) .

انزل الاب القلة . تفصد وجهـــه بعرق غزير . غصّ حلقه . حدج ولده بنظرة ملأى بالحزن والالـــم والغضب ، ندت منه آهة موجوعة وسأل :

ـ ويا ترى رحت الوحدة الصحية اليوم ؟

ـ لأ ..

ـ وليه لأ ..

ـ قلت آجي أقولك الاول ..

ـ طيب امشي روح ..

ترك محمد بقية الطعام . مضى حافيا يجرّ قدميه المتشققتين الحافيتين . يتعثر فيجلبابه متأبطا كراريسه ميمما شطر الوحدة الصحية .. غيّر من اتجاهه فجأة. انعطف الى البيت . دخل على امه وهي جالسة امـــام الفرن . تلفح وجهها حرارة النار فيبـدو مشتعـــلا متأججا . يداها في العجين وفي الحطب وفي النار .

بشت في وجهه . سألته عـن احواله . اخبرهـــا عن موضوع التعبير ، ودون أن تستطرد في السؤال قال لها انه كان عن زراعة القطن . فوائده ومشاكله .

اطرقت الأم للحظـة ...

ندّت عنها آهة موجوعة . رمت بقرص العجيـن

في حضن الفرن الحامي. أشاحت بوجهها عن ابنها الذي ترك المكان في صمت ... ومضى ..

. . . .

في الطريق الترابية ما بين البيت الطيني والوحدة الصحية قابل سعاد . زميلته في الفصل المدرسي وجارته وقريبته وكل شيء . لاحظ ان عينيها تنزان صديدا ساخنا . سألها :

ـ مالك يا بت ياسعاد !!

ـ عينيا يا محمد . انا رايحة الوحدة للدكتور

ـ وانا كمان رايح . انما دي عينيك حمرة قوي ووارمه وشكلها كده غريب !

ـ يعني اعمل ايه يا محمد . نصيب ومقدر .

كان محمد مريضا بالقلب . وبالبلهارسيا . وبالانكلستوما .

كان الدم يتفجر من ماسورة البول ولا يهتم .
وكان قلبه يضرب كالثور الهائج ولا يسأل .
وكان وجهه يشحب لدرجة الموات ولا يعي .

كان يقعي ليستجمع انفاسه. وكان عاجزا عن اللعب مع اقرانه) .

ـ شفتي اليوم موضوع التعبير اللي كتبته ؟

ـ شفته يا محمد . مبروك. وايه الفايدة. الدودة وأكلت القطن . واللاانت مش عارف ان المحصول كل سنة بيقل ؟!

صمت محمد . كان يعرف ، لكنه لم يتوقع الرد . مر جادا بذاكرته . زاد من تورم قلبه . أحكم وضع الكراسة تحت ابطه . مضى يجر قدميه الحافيتين المتشققتين . متعثرا في جلبابه . ينكفيء في التراب ، ينهض . ويمضي في طريقه .. الى الوحدة الصحية ..

. . . .

امام الوحدة الصحية تقع الجمعية الزراعية .

جمع من رجال البلدة يلتفون في شكل دائرة حول مبنى الجمعية . امام المدخلَ الاسمنتي المرتفع عن الارض. المرشوش بالمياه . يجلس افندي على كرسي وحيد . أفندي أنيق يلبس نظارة سوداء لامعة . كان يتأنى في حديثه . وكان يعدّل من وضع رابطة العنق بين الحين والحين . عرفه محمد فورا . انه عبدالله افندي مهندس الارشاد الزراعي . انحشر محمد في الجمع . أصاخ السمع

(طبعا انتم سمعتم الخبر . انا في الحقيقة جاي اقولكم ان زراعة القطن خسرتنا كتير قوي . الحكومة قررت زراعة الكرز . الحكاية مش صعبة قوي . هي غريبة شوية . لكن الارشادات الزراعية هتذاع بعد نشرة الاخبار . خمس مرات يوميا . والتقاوى هتوصل قريب مع الخبرا الاجانب)

انفض الجمع . انفرست بويضة البلهارسيا بحدة في مثانة محمد عبد الحكيم . انهمر الدم كالبحر . باتت دورتها الذكر ودودتها الانثى ترتع في كبده . تتناسل وتمتصه . ثبتت ديدان الانكلستوما اسنانها في امعائه امتصت دمه بشبق . اختلط دمه ما بين قلبه ورئتيه . اضطرب . اغلق محلج القطن بالمركز . مسرح عمال الغزل والنسج في الشوارع . تورمت عينا سعاد اكثر. سحتا صديدا ملتهبا بحثت ام محمد عن الحطب. لاحت لوزة القطن في عيني ابي محمد الدامعتين . بث الراديو الارشادات والاخبار والاغاني والقرآن الكريم .. وعم الفلاحين هم فظيع ..)

★ ★ ★

مضى محمد عبدالحكيم يجري بقدميه الحافيتين المتشققتين . يهرول . يتعثر في جلبابه . ينكفيء . ينهض . يجمع كراريسه . ينظر خلفه . قلبه يدق كوابور الطحين . يزداد وجهه شحوبا . يتقطع تنف . وراءه سعاد . تزداد عيناها تورما . تسحان صديدا يبلل هدمتها البالية . يدخلان الى مبنى الوحدة الصحية . يناوله العم حسين الاناء . يتبول محمد فيه دما . يكشف الطبيب على سعاد . يناول محمد الاناء العم حسين الشارد النظرة . المتجعد الاسارير . صبت البول الدموي في الاناء الزجاجي المخروطي استعدادا لتحليله . تبادل نظرة سريعة مع محمد وسعاد الواقفين في حجرة المعمل انتظارا لاخذ حقن العلاج . اشعل وابور الجاز . غلى فوقه المحقن الزجاجي محدثا قلقلة كسرت الصمت القاتل . من شباك المعمل بدت مساحات الحقول المزروعة بآخر محصول قطن مهجورة . تطلع محمد عبدالحكيم الى وجه العم حسين المهجور من الانفعال . المشحون بالتجاعيد .

سأله : ـ انما قوللي يا عم حسين. شكله ايه الكرز واللا الفراوله دي ..؟!

ضحك العم حسين عاليا . صمت . اشار باصبعه الضخم الى اتجاهين محددين وقال :

ـ ما اعرفش يا بني . بس سمعت انه في لون بولك وفي شكل عيون سعاد .

كاسل باد ـ ايرلندا

البحث عن الشعر ...

ليث الصندوق

السيد رئيس التحرير : تحية وسلاما .

منذ زمن وانا ابحث عن الشعر ، اشتريت من اجله مشارط ومباضع ، وعملت في جسد الكلمات والكتب قطعا وتمزيقا ، فما عثرت على عملته الذهبية المفقودة .

وفتحت دليل ارقام الهاتف ، فلم اجد لا عنوان بيته ولا رقم هاتفه ؛ وفي الليالي الشتائية الماطرة ، كنت ألبس معطفي الصوفي الثقيل ، رافعا ياقته على عنقي ، وأخرج مغامرا باسمي وسمعتي باحثا عنه في الطرقات التي يعرفها اللصوص والشرطة معا .

ولكن ليس معنى ذلك اني لم اجده ، لقد وجدت الذي قالوا لي عنه انه توامه ، وحاولوا ان يقنعوني بذلك فما اقتنعت ، اذ ان تشابه اسماء الاباء والالقاب لا يعني (حسب عرفي) الانتماء الى ذات الاصل ، فقد تتشابه جوزتان في سمرة القشر وصلابته ، فتكون الاولى طرية اللب ، لم يمض على نضجها وقطعها الوقت الطويل ، وتكون الاخرى طاعنة مضى على سقوطها العهد ، فنخر لبها وتسوّس .

لقد كان الاخ التوام الذي عرفته شيخا كبير السن وقورا ، يتوكأ على عكاز ويضع على عينيه عدسات مكبرة ، وفي جيب سترته قنينة الدواء .

ولم أقتنع انه من الممكن لاثنين يكبر احدهما الاخر باكثر من مائة عام ان يكونا اخوين ، وانا اتصوّر الشعر طفلا صغيرا ، كثير الهفوات والعثرات ، يبحث عن القواقع ، ولا يبحث عن الذهب ، ويهوى جمع الطوابع واقتناص الفراشات ولا يهوى ارتياد عيادات اطباء العظام والقلب ، وجمع انواع الادوية .

انه في اعتقادي اللين والهشاشة ، فهو الطفل بكل براءته ، وصفائه ، وليس من الممكن أن ننفخ في عمره كما ننفخ جلد العجل المسلوخ ، ليكون شيخا وقورا ، لقد قرات للكبار شعرا ، فوجدتهم يسقطون عليه شيخوختهم ، فاذا به يئن تحت عبء السنين ، كبيرا وقورا ، يمضي به العمر الى الموت . لقد حمّلوه اغلال الوقار والحياء ، واشبعوا فمه بمفردات الصمت والهدوء ، وادخلوه دار الفتوى ليكون اماما ، وجعلوا من حوله التلاميذ والمريدين ، يرفعون أكفهم طالبين التوضيح دائما ، وهم يخجلون ان تُرفع اصابعهم رفضا وتعنيفا ، لانهم في حضرته يؤثرون ان يوصموا بالجهل ولا يوصموا بالرفض ، فالجهل في عرفهم اسمى ما يطلبه الشاعر من سيده الشعر ، والرفض اذل الوصمات .

لقد وجدتهم يكتبون عن صديقي الشعر بحذر مشوب بالخوف ، فعجبت لذلك ، وانا اردت الشعر ، فكان صديقي ، وحبيبي ، بل انه آثر ان يصغرني عمرا ليكون مني بمنزلة الابن الى ابيه ، لذلك اخذته الى الحدائق ، واشتريت له الحلوى ، وعلمته كيف يصطاد الفراشات ، بل كيف يبكي او يصطنع البكاء ليستدر حنان من يرفض له طلبا ، ودربته على المخاتلة والكذب فسبقني ، حتى وجدت نفسي في آخر الشوط ، وكان في أوله ، يغمزني بخبث .

ولم اتركه لجراة يفترّ بها ، فعلمته الخوف لان جميع الاطفال يجيدون الخوف ومن يجد منهم نفسه قد تجاوزه عدّ كبيرا .

ولكنني اغمضت عينيه بكفي حين مررنا معا امام المداجاة والملق لاني أردت لضوء عينيه أن يبقى صافيا كعين الشمس لا تعكره ظلمة .

نعم ايها الاستاذ الجليل ، انا اجيئك اليوم بصحبة صديقي الصغير (الشعر) بعد ان اعدته الى عمر الطفولة ، انه يقف في حضرتك بثوبه الجديد الذي خطته له من قماشي الخاص . ويكفي انني تحملت من اجله وخز الابرة بصبر ورضى ، انه امامك كما ردته طفلا متواضعا يروي بعفوية عن شؤون الحياة الصغرى التي لا تثير الكبار ولا تحرّك مشاعرهم ، يحدثك عن سباق بين القطار والشارع وعن (خلاّطة ألبيض) ، وهو يدخل الحياة ـ مجربا ـ من بابها الامامي الذي لا يدخل منه اللصوص ابدا .

ولتعذر ابني (الشعر) ان لم يحدثك عن الاشياء الكبرى كالبحر مثلا ، والريح التي تلطم القمم والسماء التي ترفض النظر الى اسفل ، لانه يا سيدي لم يركب معي البحر ، ولم نشحذ معا من الريح كسرة خبز ، ولم نفكر أن نبني يوما سلما يوصلنا بالسماء ونجومها المتعالية ، المتكبرة ، واننا متواضعان ، نسكن على الارض ، ولا نبيع فراشاتها ولا سلح عصافيرها او لقاح اشجارها بألف غيمة وقورة ، لا تثبت على حب ، ولا تدرك معنى للوفاء .

تحياتي لك يا ايها الدكتور ، وليكن صغيري ضيفك ، قدمه على صفحات مجلتك ، ولا تبخل عليه باشارة المرور الخضراء ، وتابعه بنظراتك وهو يعبر ، فقد تزل قدمه على الطريق وتفزعه العربات الكبيرة المنتظرة بابوافها الزاعقة . واذا مدّ مصافحا لك يد الطفل البضّة اللينة فلا تعاملها بوقار الكبار وتسحب يدك .

تقبل سلامي .

***

السبق

(كان القطار والشارع يلبسان سراويل قصيرة للركض ويقفان متحفزين على خط البداية .)

صفّرا من صدر موّار
وانطلقا في الغيب
شيخين وراء فراشة

عملاقان من المعدن
ومن الحقد ، ربيب الارض المعفاة
الاول دكّ السفح باقدام العجلات
فتصدع ما عاق السيل
والثاني يزحف من طول
ويمدّ يديه ليلتهم البعدا

التفّا حول الابعاد
وامتلأا طلعا وعثيرا

زعقا في اذن الليل ففزت نجمة
من غفوتها ، والتجأت للقمر الآمن
القت رأسا بين يديه
وعلى كتفيها سحبت فروته
فتيقظ مهموما
مسّح عينيه بكف راجفة
ومضى نحو السور
يحرس ابناء غرثى
ومضى نحو مقابرهم
يحرس بقيا رمم
حام لصوص العظم عليها

وارتجفت في رحم الارض اجنّة

أنت وردة
فرأيت قطارا يضرب سكّته
يسحبها كلجام نحوه
يقتل فيها رغبتها في الضحك

ويمرّ بكل قساوته
وبكل حماوته
وبكل شراسة ناب مكسور
يضمر حقد الجمر
وحقد الفحم
ويقاوي عضل الريح ، واعصف ليلة

وعلى الجانب ،
كانت افعى سوداء من القار
تعدو ـ
وتحاول ان تمسك بالمارد ،
ان توقف زحف الفولاذ
لكنهما اقوى من ان يثبط بعضهما
عزم الاخر
من ان يقفا ،

او تعجن نارهما بالكفين
فافاق‌الافق على صرخة
وتنحى ليمرا دون عوارض
او اقفـال .

ونطاق من شوك
حال عتياً بين اثنين
وتقدم مزهوا نحوهما بجيوش من ورد
برماح تأمل في نيل شبا الحدين .
لكن حين ارتفعت اقدام الفولاذ
دكت بحذاء مرقوع سكتها
وجل الشوك ، ولم ينبس
وتقدم نحو الثاني
فتحداه الاسفلت ، وقد مدّ سلاحا ـ
ان ينمو كالشعر على صدره
فتوقف بيـن النابين
لفلف جسما مخذولا ،
وغفى فوق التلعة .

والريح السوداء ،
كانت تتبـع هذا الضربا
وتسابق من غير دخول في‌المضمار .
لكن حين ارتفعت للشمس على الافق
مشاعلهـا
آثرت النزهة حذو الانهار
ومداعبة الاغصان اللينة القلب
فالضعفاء تصيبهـم بالكبـر معاشرة
الاصغار

وهناك على الافق
كان الشارع يحمل زهرته
ويقدمها بتواضعه الجمّ
لقطار بلـغ القصد بدون انين
وهو الحامل كل ثقال المعدن

وهناك على الافق
كان قطار يحمل زهرته
ويقدمها بتواضعه الجمّ
الشارع اذ بلـغ القصد بدون انين
وهو الحامل كل هموم الماشين ،
وابدان السيارات

* * *

« خلاطة البيض »

تدور في اتـزان .
خيوطها لامعة رهيفة ،
من غير التفاتة
او سحبة من غبار
فلا تحس خلفها سوى بكف الحنو
او لطمـة مباغتة
تخرم حدّ الآنية .

وفي القصاع التمت الفضبان
حوال كومة من العجين
وطاش حول الاطر الرذاذ
فزمّت القبضة من معدنها
من لحمهـا
منقبضا ، منفرجـا
فهي الحيازيم تشدّ البدنا
تخلف اليماني عنها يمنة
فدار فيهـا الايسر اللزيق .

قضبانها دائرة
تُعقد في سرعتها المصطرعة
حتى تذوب معدنا .
ويفقد اللميـع
في الطحـن والخرشاء
معتجنـا ،
ممرغـا بصفرتـه .

لكنها دوما تردّ الكف للبدايه
تجبرها ان تقبض الاصابع
والعظم خوف الانفراط الرهيب
في زحمة الدوار ،
وعصفة النكهة والمذاق .

خلاّطة البيض هي الكرة
في سطحهـا ،
حين تدور مرّة في الضوء
خالطة صفاحها بلمعة ملحومة بنقضها
لكنها تدوي كبرج مائل
كصرخة تسحب من اعماقي الاحشاء

خلاطة البيض التي تسحرني
تخلطنـي ،
في لحظة السهو بلا صفار

بغداد

وصفي قرنفلي :
بين الرومنسية والواقعية

قصي أتاسي

مما لا شك فيه ان الحركة الرومنسية لا يمكن درسها أو فهمها بمعزل عن جذورها التاريخية ، ولهذا لا بد من الرجوع الى ذلك الوضع الجديد الذي نجم بعد ميلاد العصر الرأسمالي ، هذا العصر الذي نبتت فيه بذور الحركة الرومنسية وتفرعت أغصانها ثم ازدهرت وأثمرت .

في تلك البيئة الجديدة ، وفي ظل أوضاع طارئة فرضها النظام الرأسمالي فتح الفنان عينيه فوجد نفسه محاطا بما لم يألف ولم يفهم ، انه وضع غريب راح كل شيء فيه يتحول الى سلعة ، كما راح العالم القديم يتفكك ليصير ذرات تدور في دوامة عاتية ظالمة غامضة.

وهكذا فالعلاقات الانسانية التي كانت سائدة في النظام القديم أصبحت خاضعة لمجموعة من المؤثرات والعوامل الجديدة ، فالانسان في ظل هذا النظام الوليد، بعد أن كان يتعامل مع انسان ، صار يتعامل مع سلعة.. مع أشياء .. مع أوراق نقدية .. مع أرقام وجداول حسابية وخطوط بيانية . وكما أصبح الفن سلعة أصبح الفنان منتجا للسلع .. وهو معرّض اذن للمنافسة القاسية في سوق حرة ظالمة لها قوانينها المستعصية على الفهم . الحافلة بالتناقضات المريرة الخانقة .

في مثل هذه الاجواء الغريبة ، وتحت ضغط هذه التناقضات والظروف اللاانسانية أحسّ الفنان بأنه محاصر يكاد يختنق أو يضيع ، ولذا ما عاد بوسعه أن يدافع عن عالم هذا شأنه ، عالم يحسّ فيه بالغربة والعزلة ، عالم يسحق شخصه ويدمر فرديته ويذوّب ذاتيته وخصائصه كانسان ، ويفجعه بأعز ما يملك ... فكانت الرومنسية حركة احتجاج صارخ على الدنيا الرأسمالية البورجوازية ، على التفاهة والتجهم والقسوة التي ترافق عالم الاعمال والربح والمنافسة ..

وهكذا كان من التجارب الاساسية التي حرص الرومنسيون على تصويرها ، تجربة الفرد الذي يقف وحيدا في مجابهة العالم ، غريبا بين الغرباء ، (أنا) منفردة في مواجهة (اللاأنا) الهائلة الغامضة المخيفة ، مما ادى الى تقوية الشعور بالحيرة والضياع والذهول والانطواء على النفس والعزلة الكئيبة الموحشة مع المشاعر الداخلية والاحاسيس الفردية .

ولذا تحرر الرومنسيون من سلطان العقل الذي كان يحكم دولة الكلاسيكية ، واعطوا الحرية ، ملء الحرية ، لأهوائهم ونزعاتهم ونزغات نفوسهم ، فانطبع انتاجهم بطابع شخصياتهم وذواتهم ، وظهرت فيه الاعترافات الشجية ، كما ظهر البوح الناعم الهامس بمكنون الوجدان .

أما الخيال فلا تسل عن دوره ، فهو الملاك المخلص ، وعنده العزاء ، وعلى أجنحته الذهبية سلوى، لا تعادلها سلوى ، وعالم سحري عجيب .

أما القواعد والقوانين التي وضعها الكلاسيكيون فالى الجحيم ، وفي قلب كل فنان نبع لا ينضب ، وحماسة لا تجف ، وتفجر ذاتي لانفعالات وصبوات لا انتهاء لها ، فليجدد كل فنان اذن ، وليستق من ذاته ما شاء ، وليأت بأخصب العطاء دونما حاجة الى قانون أو قاعدة ، وفي أحضانك أيتها الطبيعة مسرح للفكر والشعور ، وملعب يا له من ملعب للخيال والجموح ، وواحات ظليلة لكل متعب هارب من جحيم الوجود !

* * *

وحينما تفتحت أبواب العالم العربي وأشرعت نوافذه ليستقبل التيارات الادبية والمذاهب الفكرية ، كانت الرومنسية أسبق من غيرها في الوصول ، بل وأكثر المذاهب قبولا في دنيا الادب . وسرعان ما وجدت تربة خصبة نمت فيها وازدهرت لتثمر عطاء غزيرا على يد جيل من الادباء ، كان (وصفي قرنفلي) واحدا منهم ، فوجد في الرومنسية ضالته ومبتغاه ، ليصبّ فيها تعبيره عن نوازع فردية متمردة ، كما وجد فيها وترا تعزف عليه (الأنا) المختنقة المحبوسة التي مزقها الالم والصراع اللامجدي مع واقع بائس متخلف جامد أصبح

ألتلاؤم معه ضربا من المستحيل. فيغمس الشاعر المرهف المتوفز الحسّ في تجارب فردية ذاتية يغرق فيها همه وينسى ذاته ولو الى حين . ويتعرى عن الوجود المزعج المقلق بالشعر الذي يسرح وراء الجمال ، جمال المرأة ، ــ المرأة العزاء ــ يتصيد بسمتها الربيعية المنعشة ، ويتفيأ ظلال هدبها . وينتشي بما يفوح من صبوات اذا مشت أو همست أو غمزت :

وتغمز جارتي : أتقول شعرا ؟
فلم أنبس . كأن الامر سرّ
وقالت : غنّ بي شعرا ، وصفني
فملت بها أتمتم : أنت شعر
على شفتيك متكأ المعاني
وفي الهدبين قافية وبحر !
ونهدك ــ آه ظل النهد ــ حلم
تفتح في الصدار، فقيل: فجر !
دم العشرين منطلق يغني
كما غنّى مع النسمات زهر
خطى نغم ، وخصر مستجيب
سرى.. فالافق أنى سرت، خمر
أناضل في سبيل العيش يومي
وأرجع والدم المكدود قفر
وتبتسمين ... فالدنيا ربيع
وحب والحياة رضى ويسر
شبابي حال خلف دمي ، حطاما
وبعثرت القصائد فهي نثر
ولحت .. فكل جارحة قصيد
أبعث ؟ والحطام الميت نغر
سفحت الاربعين وقلت : حسبي !
فضجّ القلب: هذي(الحسب) نكر
الى أن ننتهي ... فضممت قلبي
أقبله .. وقلت : وأنت شعر..

وهذه تجربة ذاتية أخرى يسبّح فيها الشاعر بحمد الجمال المصفّى ، ويصلي في هيكل الحسن المعبود ، ويرتل أنشودة الهوى المشبوب العاصف ، حيث تبوح (الذات) بمكنون وجدانها . وتهمس (الأنا) العاشقة المدلّهة مسحورة مبهورة تتعزى عن (قبح) الواقع ، بجمال يتجسد مفاتن أنثوية يغرق فيها الحسّ ، وتستريح في ظلالها الاعصاب المتعبة المكدودة المتوفزة .

في زحلة ، جارة الوادي ، أمضى الشاعر يوما وليلة ، فكانت ذكريات ، وكان شعر ، وكانت قصيدة :

(مادون) (1) ! تلويح بقبله زاد الغريب ، وما أقله
وغدا أروح وتنطوي في القلب، أنى رحت، غله
(مادون) هذي كبرياء الشعر بين يديك ذله
ما زحلة السمراء ؟ ما وادي العرائش ؟ أنت زحله
ماذا ؟ وراح الشعر يحلم فيك تفصيلا وجمله :
شفة . وقل : سبحانها . سجد النبيذ لها وأله
سلبته نكهته ورقة لونه القاني وفعله
فأطلّ يلهث كالغريب يدور لم يبرح محله
غمزت هنا . بل من هنا ، قتلته ايماء ونقله
... شفة . سل الشفق المحشرج : من سقاه دما وعله ؟
وتلفت الكرز الذبيح الى العقيق : دمي ودله
...والهدب. يا نعس الهوى سكب البنفسج فيه كحله
الفجر هوّم برعما والعطر تمتم فيه قبله
... مادون أي مادون ان عقل الهوى حطمت عقله
أنا في الهوى طفل وأنت وراء هذا الغنج طفله
ما زحلة السمراء ؟ ما وادي العرائش ؟ أنت زحله !

* * *

واذا كان جان جاك روسو يدعو الى العودة الى الطبيعة والارتماء في أحضانها واتخاذها ملجأ أو مهربا من قسوة العيش وتعقيد الحياة وتشابكها وضجيجها.. واذا كان لامارتين في (البحيرة) يستنطق الطبيعة ، غاباتها ووديانها وغدرانها وجداولها وكهوفها، ويشخصها ويخلع عليها الحياة ليناجيها ويبثها شجونه وأحزانه ، ويستودعها أسراره ومكنونات وجدانه ، فوصفي قرنفلي لا يقلّ عنهما التحاما بالطبيعة والتصاقا ، ولا يقصر عنهما تشخيصا وتأنيسا واحياء وتحريكا ، حتى تنقلب الطبيعة كائنا حيا يتنفس ويضطرب ويلهث ، بل ويعاتب ويلوم ، ويغني ويرقص ويهفو ويميل ويسكر ويطرب :

هزّني صاحبي وقال : أفق فالصبح نديان ناعم يتفتح
قم أخا الشعر ، فالقوافي عذارى
عاريات كالصبح ، في المرج ، تصدح
سبقتنا الطيور فهي تغني
منذ حين ، والورد في العطر يسبح
همّ نيسان بالعتاب : أيغفي في صبا
حي ؟ والكأس باللوم أفصح
فتثاءبت ، والكرى في جفوني
وتناهضت نحوه ، أترجح
فاذا الصبح، في غلالته الزرقاء، ساج ينهلّ طيبا، ويلمح
بين هدبيه من عطور الليالي حلم هزه الضحى فتفتح
..طلع الصبح! فالفضاء مدى عينيك، عطر سار، ونور مجنح
عرس الشمس، زغردت في فم الصبح، وراحت تزقه فترنح
.. والطيور استقلت الجو أسرا
با ، وراحت تدغدغ الجو ، صدّح
مشهد يعقل اللسان ، ودنيا
ترسل النفس في الفضاء ، فتسرح

(1) اسم حسناء الشاعر .

لذة كالنسيم ناعمة بيضـاء تنساب في الصدور فتشرح
قلت : يا صبح مرحبا ، وسألت الشع
ـــر : ماذا تـرى ؟ فصـلى وسبّح !

* * *

واذا كان الرومنسيون يعيشون في اعماقهم مأساة الضياع والتخبط ويندبون (الآمال الضائعـة) المتحونة الى رماد منطفىء ، واذا كان احساسهم بالغربة والمرارة والخيبة ينغص وجـــودهم ويملأ أفواههم بطعم الملـح فيسعون وراء السراب يتعلقون بأذيالـه ، ويجرون وراء الوهم والخيال يستحلفونه أن يحملهم على أجنحته ، فان شاعرنا يشعر أعمق ما يكون الشعور بالحاجة الى قناعة تملأ فـراغ النفس ، وعقيـدة تشحن خواء الروح ... فيتعلق بالآمال ويستمسك بها ، ولو كـــانت سرابية ضبابية بعيدة لا تنال ، زئبقية لا تمسّ ، ويعلن عن رضاه بالاوهام واكتفائه بالاحلام ، فهي خبز الحياة ، ونبيذ الشرايين الباردة ، وهي الزاد الذي لا غنى عنـــه في رحلة الوجود .

أليس الوهم في لحظات أحلى مـــن اية حقيقة ؟
أليس السراب في لحظات أندى من اي ينبوع ؟!

* * *

عصف اليأس بالبقية من كأسي فأفرغت في التراب شرابي
ونفضت المنى فأهوين أنقاضا «الى النار يا سياط العذاب»
آه منكنّ آه أنتنّ دائي وجراحـي وحيرتـي واغترابـي
وتنهدت .. مجهد بلغ الشطّ ، وأجهشت للضفاف الرطاب :
أيها اليأس ! أنت برء وعود مطمئن الى مراح الشباب .

* * *

حلم كاذب صحا من جراح لا تعي .. هل وعت مدى القصّاب؟

الدجى مغلق ، ترى الصبـح قد مـا
ت .. هل الصبح مثلنا من تـراب ؟

أي تيه هـــــذا .. ألا ناس في الار
ض ، الا درب في ظـلام الضبـاب ؟

عطش في اللهى ينوح .. ألا ساق .. أما ثمّ قطرة من شراب ،

* * *

قيل : في اليأس راحة .. تعس القو
ل ، وهـــذي أشلاؤه في ثيـابي
ان شر الجراح جرحك يا يأس ، بل الموت دون هذا العذاب
الفراغ العقيم لون من الموت تعرّى حتى مـــن الاكتئاب
خلق العقلَ كافرا وطغى العلم وصرّت أنيـــابه كالحراب
فتهاوى الايمان شلوا ذبيحا يتضاغى ما بين ظفر ونـاب

يا ضلالي .. طـال السرى وتداعـى
دربك الميت متعبا فـي الشعـاب
يا لرجس العنوم ! أنقى وأسمى من جميع العلوم طهر الغاب
ان خيرا من الحياة بلا ربّ ، وأندى ، عبـادة الانصاب

* * *

المنى والدموع والالم المبدع سر الحياة ... روح الشباب
والمنى والدموع والالم المبدع حـالت الى رمـاد هـــاب
نفض اليأس في دمي عنصر الموت وذرّ الصحراء في أهدابي
قتل الشعر في فمي ولواني عن صحابي فملّتني أصحابي
صبغ الافق بالدجى وأتى الخمر فصبّ الظلام في أكوابي
عقم لفني وسمّر دنياي .. فماذا ؟ والعقم في أصلابي
يا لفقري حرمت حتى من الدمع ومن رعشة الاسى في اهابي
يا أماني عدن بي ، هزني الشوق وضجت في رمتي أعصابي
عادني الشوق يستفيث الى دائي وجرحي وحيرتي واغترابي
يا أمانيّ انقضى في دمي الميت خفقـــــة من خضـاب
يا ضلالي عد بي الى الوهم اعبـده وابن في ظله محرابي
الامانيّ من سراب .. ولكن آه .. من لي بجرعة من سراب ؟!

* * *

واذا كانت آلام (ألفريد دي موسيه) وبوحـه الشاكي وانينـــه الخافت ، ونشيجه المحشرج ، قـد انسكبت عصارة شعرية مصفاة في قصائده الرومنسية ... واذا كانت جراح فؤاده المدمى قد صبغت قوافيـه بألوان الاسى والكآبة والغم ، ففدت شاهدا خالدا علـى (الأنا) المعذبـة المفردة الوحيدة التي لا معيـن لهـا ولا أنيس في وحشة الحياة وصحـراء العيش ، فان آلام وصفي قرنفلي قد فعلت فعلها ولعبت دورها في شعره ، فانعكست حسرات دامعة واجترارا للذكريات يمضغها ، ورثاء للشباب الذي لن يعود ، ورنـة تشاؤم سوداويّ كئيب يعلن فيـــــه الشاعر استسلامه ورميـه للسلاح واعترافه بالهزيمة وتسليمه بالانتهاء والانطفاء ... فراح يترقب المصير الفاجع وينتظر بل يتوقع فاجعته النهائية التي تنهي سائر الفواجع وتختمها . ها هو ذا يبعث الى صديقه صاحب مجلة « الاديب » بقصيدته الشهيرة : « طلائع النهاية » :

حسبي ، فهذا دمي قد جفّ واتأدت
خطاي وانطفأت فـي دربـي الشهب
أمضي مع الدرب حيران الخطى قلقـا
والتيـه يجهش فـي قلبـي وينتحب
جفّ البيان ، وكان الورد ، في شفتي
وكنت ، ان قلت شعرا ، برعم الادب
تمرّ سمراء ، ان مرت ، فيتبعهـــا
طرفي فيكبو فيغضي ، والهـوى تعب
ويزار العصر أحـداثا فالجمهـا
بالصمت كالقبر ، لا شوق ولا غضب

وكنت ، اذ كنت شعرا ، كلما ومضت
بنا الحوادث كالتيار أصطخب
على الشفاه ــ ومالي لا أدلّ بها ــ
قصائدي خمرة او نكهة عجب

***

صحا السراب فنام التسعر في كبدي
كان السراب مني ، ان المنى لهب
الكأس تلهث في كفي ، وقد ظمئت
والصمت متكيء كالكأس ، مكتئب
يا ذكريات اسكبي في الكأس مضطرما
كالنار، من أمسنا ، يضحك بها الحبب
خبت ليالي الا من تنهدة
تئن ثكلى والا خافقا يجب

***

حسبي ، وأفرغت كأسي ، في قرارتها
أفرغت دنياي لا جد ولا لعب
أحس ان ملت بالصهباء أسكبها
كأن عمري وراء الكأس ينسكب
أرى النهاية خلف الدرب تومىء لي
تخبّ نحوي ، ومشيي نحوها خبب
واليأس ، هذا الفراغ الميت في كبدي
ليل تساوى لديه البعد والقرب
العقم والليل والصحراء ، تلك أنا
حتى كأني الي الموت ينتسب
قلبي (كنرجيلتي) يغفي على حلم
قل يا رماد : ترى هل يورق الحطب ؟
يا درب عد بي فصاح الدرب : واحزني
وأطرق الشيب يبكي : فاتك الطلب
هيهات .. أو يسترد النبع جدوله
ويورق الشوك ، في عنقوده عنب !
اذا الشباب مضى ، فالعمر أطيبه
مضغ الرمال ، سراب طعمه كذب
ماذا ؟ ومات سؤال لا جواب له
ومال هدب، وأغضى لا يرى ، هدب !

***

تلك كانت مرحلة الرومنسية عند وصفي قرنفلي : شعور حاد بالغربة والضياع ... وتخبط عشوائي لا يعرف له مستقرا ولا وجهة يتجه اليها ... وابحار مع التيار لا يأمل في مرفأ أو ملجأ ، وانكفاء على الذات وتغن بشجونها ، وانصات الى ما تهمس او تبوح به ، وسعي حثيث لا يتعب وراء لذة عابرة تتجسد جرعة شراب أو قبلة شفة ظمأى ... ولهفة حرّى لاهثة وراء السراب ولا وصول .. واجترار للذكريات والحسرات الدامعة ..

ولكن الشاعر اذا كان يحسّ الاصغاء الى بوح ذاته وهمس ما بين أضلاعه ، فان ذلك لا يعني انه لم يكن يحسن الاصغاء كذلك الى أصوات أخرى ، وان كانت خفيفة بعيدة ، ولا يعني انه عاجز عن تلقي تلك الهمسات الناعمة التي ما لبثت أن أصبحت ضجيجا يقرع الاذن ولا يمكن التغافل أو التغاضي عنه ... فبعد الحرب العالمية الثانية ، ومع بداية الخمسينات ، راحت تلوح في الافق معالم تبدلات طارئة جديدة في شتى الميادين والاصعدة ، كما راحت تلوح في الافق تباشير هزات عنيفة تحاول أن تضرب الحياة العربية في جذورها لتحيي مواتها وتدفىء جامدها وتحرك ساكنها ... فاذا الانسان العربي ــ ولا سيما الطليعي ــ مدعو الى مراجعة الحساب مع وجوده المشوه ، ومعاودة النظر في شؤون حياته التي يغشيها الخمول والقبح ، خمول التخلف ، وقبح الاستغلال والظلم والقهر والخرافة .

اذن هناك تيار عاصف جارف أخذ يهبّ على الارض العربية ليوقظ النيام ويفتح العيون والبصائر على واقع يجب أن يتغير ، وعلى طرز وعلاقات وأنظمة للعيش ما عادت مقبولة ولا مستساغة ، بل حقها الرفض والطرح والتبديل .

فرز طبقي راح يتوضح ... ساحات جديده للنضال مهدت لتجري على أرضها معارك من طراز مختلف .. فالعدو لم يعد المستعمر الدخيل وحده ... بل ما أكثر الاعداء وما أكثر الجبهات ..

وهكذا صبّت دماء جديدة في شرايين الحياة العربية ، وشاع في الوجود العربي قلق فتطلع فتحفز وتوثب نحو وجود أرقى وأجمل وأكمل .. ولكن التطلع والتحفز لا يكفيان ، ولكن القلق والتوثب لا يجديان ، انهما مرحلة تسبق وتمهد لمرحلة الوعي والاستبصار . وعي الحقيقة القائلة : انه لا بد من العمل ، لا بد من النضال والقتال ، فالمعركة قائمة مفروضة والسلاح لا غنى عنه لمن يريد المعركة ومجابهة العدو .

وراح الشعراء العرب يتنسمون هذه النسمات التي أخذت تمسح ما ران على الاجفان من نعاس ، وتغسل الغشاوات التي كانت تحجب الرؤية ، رؤية الطريق الواضحة المعبدة .

وقد كان وصفي قرنفلي سباقا مجلّيا ، وقد كان طليعيا بكل ما تعنيه الكلمة من وعي ناضج وفكر متقدم وانفتاح سريع على معطيات المرحلة ، فكان (ملتزما) بصدق وعمق وايمان عجيب وحماسة مذهلة .

وها هو ذا الشاعر يخرج من التيه الذي كان يخبط فيه ، ويتلمس دربه ، فسرعان ما يجد ذاته في هذا

الالتزام ؛ وسرعــان ما يلقى في الواقعية الاشتراكية صمام الامان الذي يعصم من السقوط ، ويحمي من الضياع والهروب والتمزق ، فيعلنها صريحة مدوية ويصرخ مع الصارخين من رفاق الدرب : « لا هوادة » :

ايه يا شعــر قد لهونا زمانا
بالقوافي كأسا وهدبا وثغــرا

ملئنا العــاج ، والسمــوات ملت
حلما ينسج الاساطير شعــرا

... أين يا شعر ؟ والشعــوب نضال
ضاء عزمـا وطـار بالارض بشرى

...مرحبا بالنضال، يا شعب، خذني
خذ دمائي في سفرك الضخـم سطرا

* * *

وقد يعجب الواحد منا فيقول : ما لهذا الرومنسي الذاتي المنكفىء على ذاته المنطوي علـى نفسه ، الراكض وراء السراب ، ينقلب الى العالم فينفتح عـلى الناس ويتبنى قضيتهم ويحتضن آلامهم، ويجند قلمه لاستعادة حقوقهم الضائعة في العيش الحر الكريم ؟

ولكن سرعان ما يزول العجب حينما نعي هــذه الحقيقة ، حقيقــة أن الرومنسية في جوهرها رفض للواقع المشوه واحتجاج صارخ على ما فيه من قبح ...

وهكذا فليس هنــاك الا خيط رفيع يفصل بين الرومنسية والواقعية ..

ولا عجب ولا غرابة أن نرى شاعرا مثل (وصفي) ينتقل الى صف (الملتزمين) بقضية الشعب المكـافح ليكون شعره صدى يرجع صوته ويتغنى بملحمة نضاله الصعب المرير .

وهذا هو . باعتراف صادق محبب ، وببســاطة متناهية آسرة ، يحكي حكاية نقلته وتحوله . انــه يعي ما كان عليه ، وهو يعي الآن ما صار اليه :

ما كـذبت التـاريخ ، مرّ زمــان
كنت في التيـه شاعــرا ضليــلا

أسـأل الشــوك أن يعنقد أعنــا
با رطـابا أو يستطيــل نخيــلا

سمرتني الطلــول ـ والقلب طفل ـ
ويح التيــه كم يرود الطــلولا

... وانجلت غمرة الضــلال فأبصر
ت فآمنت .. فاتبعت الرعيــلا

اشرق الشعب في دمــائي صبحا
فعرفت الهـدى وذقت الشمــولا

... قل لمن يطلب الدليل الى الصبـ
ـح : دماء الشعوب قـامت دليــلا

... أنا للشعب مــا حييت ، وللدر
ب ، يمينــا لا تعرف التأويــلا

فصتـي قصــة الملايين منهـم
كتل البـؤس حقدنــا تكتيــلا

بي من البؤس مـا بهـم ومكــاني
بينهـم حيثما تولـوا سبيــلا

نسأل الشعـر أن يكـون شعـاعا
هاديا ... في طريقنـا مسـؤولا

* * *

اذن فالشاعر الآن يعي ذاته الملتزمة وموقفهالواضح الصريح . ويعرف أين يقف ! انه مع الثورة الهـادرة في ضمير الجماهير المحرومة التي طال عليهـا الحرمان ، وهي تدرك الآن أسباب بؤسها وعلل شقائها ، كما تبصر طريق خلاصها ودرب انتصارها .

والشاعر يتابع هذا الوعي ويرصد حركاته وسكناته، ويمشي مع مراحله خطوة خطوة ، ويرى اليــه جنينا فوليدا فشابا مفتول العضلات يشمر عن ساعديه مزهوا بشبابه وفتوته :

لا .. لم نعد ما يزعمون
ما يزعم المتأنقون
حلما على درب النجوم يلفّ أهداب النجوم
يبكي ويغزل حبه شعرا كتمتمة النسيم
فليسمع المتثائبون
وليسكت المتسائلون
كبر السؤال . اما تراه على الشفاه وقد تفتّح ؟
الدرب أبصر ، فانطفىء يا ليل ، ان الصبح لوّح
قل للرفاق التائهين
في الشرق تمضغه السنون :
(فقراء مكه) حطموا حكم القناعة واستفاقوا
الجوع ليس من السماء .. فمن اذن ؟
وهنا أفاقوا
ومضوا .. فمن متسولين على الرصيف لثائرين
يناقشون ويضغطون على الشفاه ويسألون
الجوع ؟ صنع الناهبين الشعب ، صنع الاثريـاء
اخذوا المعامل والحقول وطوقونا بالقضاء
ومشت جموع المؤمنين
تطأ الدجى تطأ السنين
ماذا ؟ ويسألني الرفاق ، رفـاق ايام الطفـوله :
الحب يسأل عنك والسمراء تسأل والخميله
لا.. لا سؤالسوى (متى ؟) ابدا ندور بها قصيدا
الكأس تومىء والضحى ، لا كأس ما دمنا عبيدا

أبدر .. الشرفات .. السمراء .. الهدب المكسر
حلم على لهب النضال يموت .. قل للحب يثأر

. . .

يا شعر خذ ما شئت في القبلات والكأس الرويه
واذكر وراء الكأس ، ان لشعبنا ولنا قضيه !

* * *

وانطلاقا من معطيات الواقعية الاشتراكية يدرك الشاعر ان الثورة ليست وعيا فحسب ، وليست احساسا بالظلم واستشعارا له ... ان ذلك مرحلة ، انه خطوة تسبق (الفعل) .. ومن يفعل ذلك (الفعل) ؟ الجواب واضح صريح ، انه الشعب ، انها الجماهير العريضة ـ ذات المصلحة في هذه الثورة .

والشاعر يبشر بهذا الفعل ، بل ويحرض عليه ويدعو اليه ويشير الى دربه الذي يجب أن يسلك .. هذا الدرب المؤدي الى مجتمع ينتفي فيه الظلم وترفرف عليه رايات الاخاء والحب ، وترن في جنباته أناشيد الحرية الحقيقية ، حرية الانسان وقد انتصر على مستغليه ، وأرجع الحق الى نصابه ، وراح يبني عالم العدل والرخاء للجميع ، عالم العلم والازدهار ، على أنقاض الخرافة والوهم والرضى بالواقع الاسود :

أيها الشعب ثر بجلادك الوغد وهيا بنا نقدّ الاسارا
أنت دنيا، اذا تحفزت مادت تحتك الارض خشية وانذعارا
وتكتل وانهض كما نهض السيل وفجر في شرقنا الاعصارا
حسب هذي « الارباب » تطغي وتبغي
أنزفتنا « أربابنا » استثمارا
طأطأ الذل هامنا فامتطونا
واستطالوا في ظهرنا استكبارا
ايه يا شعب ثر بهم لا تطأطيء
بلغ الصبر أفقه فاستجارا
..هل رأيت القضاء أطبق وانقضّ أيثنى؟ هل تعرف التيارا؟
أبهذا الوسنان قد أزف الفجر ونادى بنا، فحسب انتظارا
اصفع الليل انه مات وانحلّ ، وأيقظ في جانبيه النهارا
لن نكون العبيد، ان لنا الدنيا سنمضي في شوطها أحرارا
نملأ الارض والحياة اخاء
نفرش الارض والحياة ازدهارا

* * *

اذن فالشعوب صانعة الحضارات بل المعجزات ، اذا عرفت طريقها ، وليس الملوك والحكام .

تلك هي مقولة العصر ، ومنطق المرحلة التاريخية الراهنة ، والشعوب لا بد منتصرة ، وهي لا بد ، واصلة الى اهدافها طالما تسلحت بالوعي والعزيمة .

ولكن العدو رهيب شرس ، وهو الى ذلك ، ذكي مسلح بالمال والعلم يرغي ويزبد تارة ، ويرشو ويصانع تارة ، يهدد ويتوعد صراحة وجهرا ، ولا يتورع عن البطش والقهر والفتك بضراوة ووحشية .. وحينا يمكر ويخدع ويموّه فيشتري الضمائر والاقلام ، ويستميل القلوب ويفش البسطاء وينصّب له أصدقاء ومبشرين ودعاة وحواريين !

أذن فانتصدي لعدو هذا شانه ليس بالامر السهل، وليس الوقوف في وجهه والدخول معه في معركة قضية هينة .. انه يملك ان يدمر الحضارة الانسانية بحرب ضروس اذا هو ركب رأسه وارخى العنان لجنونه ... ألم ينجح مرة في أثر مرة في أن يحبس انفاس الناس خوفا من أندلاع هذه الشرارة ، شرارة الحرب، وما ادراك ما الحرب ؟! ألم ينجح مرة على مرة في ان يجعل الناس يعيشون هذا الرعب المدمر من كارثة عالمية تعصف بكل ما انجز الانسان عبر تاريخه الحضاري ؟

اذن ما على الشعوب الا ان تناضل في سبيل (السلام) وتقاتل أعداء السلام ، تجار الحروب وسماسرة الطائرات والدبابات ، فعدوها واحد وقضيتها مشتركة .

وهكذا ينعقد في دمشق في ربيع الف وتسعمئة واربع وخمسين مهرجان للسلام تحتشد له الجماهير لتصب غضبتها على الامبريالية ـ صانعة اسرائيل ـ ونصيرة الحروب ، عدوة الشعوب المستضعفة المكافحة .. وتصفق الجماهير لقصيدة وصفي قرنفلي :

« مع السلم »

سبح الصبح باسمنا اذ رآنا
وانتشى الدرب يوم همّت خطانا
صفق الجدول الصديق يحيّينا ونادى فايقظ الاقحوانا
وهفا برعم يسائل : من يا أم ؟ قالت : اظنهم نيسانا
ما عدوت الصواب يا أخت انا
من تسمّين واقعا لا بيانا
نحن معنى الربيع نورا ودفئا
وازدهارا فمن رآه رآنا
نحن معنى من الطليعة في الشعب، اذا الشعب هزنا او نخانا
نزرع الخصب والمحبة والسلم ونسمو بشعبنا بنيانا
قل لمن يزعمون عالمهم حرا : أحر يستعبد الانسانا ؟
كم خدعتم (بالعالم الحر) شعبا
والتهمتهم على اسمه أوطانا
قد عجنا (دولاركم) وخبزناه فكان التزوير والبهتانا
يهب الشعب باليسار ويمناه تحزّ الوريد والشريانا
ان هذا الدولار ، لو يقرأ التاريخ تاريخنا ، لاتقانا
عرب نحن ، والعروبة انسان شريف يستنكر العدوانا
كل تاريخنا انتفاضة أحرار وشعر يستصغر العبدانا

* * *

وطريق الثورة وعرة شائكة ... ودربها زلق موحل .. فما اكثر العثرات وما اصعب السير ، وهذا ما يغري ضعاف النفوس باليأس ويدفع بهم الى التشاؤم ويعمي بصائرهم عن استشراف المستقبل المنتصر ، مستقبل الشعوب وقد رفعت رايات انتصارها واعلت صروح حياتها النظيفة الخالية من الادران .

وهكذا فالثور لا تعرف التشاؤم .. وكذا الثوري، وكذا الواقعي الاشتراكي ، لانه يملك الرؤية الواضحة ويعرف كيف يقرأ التاريخ ، وكيف يستشرف المستقبل الوضاء لشعبه ولجميع الشعوب .. فيغني ويغني للغد الجميل ، غد العلم المنتصر على الجهل ، والحرية المنتصرة على العبودية ، والعدل المنتصر على الظلم ، والصحة المنتصرة على المرض ، والحب المنتصر على الحقد :

وكأن الغد المخضّب بالنار على مقلتي أراه الآنا
نحن يا صبح للحضارة نذكيها وللارض تستحيل جنانا
نحن للعلم والحياة وللآداب والفن اشرقت ايمانا
غدنا المشرق الصبيح انطلاق
يوقظ الارض يطلق الامكانا
ثورة الحياة .. تبدأ تدميرا ورعبا .. وتنتهي بنيانا
تنقذ الارض من جراثيمها السود ، وتبني فترفع الانسانا

* * *

ذاك هو التفاؤل الثوري المطعّم بالامل الذي لا ينطفيء .. وتلك هي قناعة كل أديب ملتزم .. واذا كان الليل العنيد يقسم الا يحول .. والدرب بقسم الا ينتهي .. فالانسانية تقسم ان تشق الليل وتخط الصبح .. وان تصل ..

* * *

وبعد .. تلك هي حكاية (وصفي قرنفلي) في رومنسيته وواقعيته عبر مرحلتين تبدوان متميزتين متباعدتين .. وما هما في الواقع الا وجهان لحقيقة واحدة : انها الشاعر الانسان الذي اوصى ان يكتب على ضريحه :

لقد غدوت ترابا لا يحركني
بيت من الشعر أو زهر على غصن
حسبي ـ ولا حسب خلف القبر ـ متكأ
في حضن أمي واني في ثرى وطني
وانني كنت ـ والاحرار تعرفني ـ
حرا ، أضأت دروب الشعر في زمني

دمشق



الشتاءات الساخنة

فيصل عبدالحسن حاجم

حينما انسحقت شرارات الضوء الاولى وتحولت الى خليط فضي انداح منتشرا في المسالك والفجوات ، شعرت عاملة البناء ان أصابعها باردة ، وفي ظلمة الغرفة الطينية استطاعت أن تميز أشياء الغرفة والباب الخشبي المؤطر من جوانبه بضوء القمر . أغمضت عينيها من جديد وسحبت اللحاف فوق وجهها . وفي خياشيمها انبعثت رائحة القطن القديم . حينما أخرجت وجهها من جديد استطاعت أن ترى طفلها الملفوف بالقماطات متوسدا قطعة القماش المربوطة من طرفيها في جداري الغرفة المتقابلين . كانت طيور زوجها قد استيقظت قبل فترة طويلة ، وهي تستطيع أن تسمع هديلها وهي في الغرفة . قامت عاملة البناء الشابة وكأنها لسعت بمئات الابر . شعرت بالدفء يغادر جسدها وهي تغادر الفراش ، وتحت ثوبها المشجّر المدعوك كان جسدها يرتجف . وامتدت يدها تمس الوجه الصغير . أحست بالوجه ساخنا . أخذته من السرير ووضعته فيحضنها. أخرجت له ثديها . اختلجت شفتاه الصغيرتان لحظة ، وعلى الضوء القليل المتسرب من فجوات الجدار والباب الخشبي استطاعت أن ترى احمرار وجهه . شعرت بالحزن من أجل طفلها ، وحاولت من جديد أن تلقمه حلمة ثديها ، ولكن مرة ثانية توترت الشفاه الوردية وامتنعت عن التقام الحلمة .

كان الفجر باردا ، وعندما فتحت باب الغرفة الطينية ، شعرت بلسعة الهواء البارد . غسلت وجهها من ماء البرميل الذي يحتل باحة الحوش ، وحالما لامس الماء البارد وجهها شعرت بالوعي التام يعود اليها ، بالرغم من كونها لم تنم طوال الليل ، فقد كان الصغير مصابا بالحمى ، وكان عليها أن تعني به ، وفكرت انه لا يسعها أن تترك ابنها عند جارتهم العجوز وهو بهذه الحال السيئة ، ولكنها تذكرت انها تغيبت خلال هذا الاسبوع مرتين : مرة حينما سقطت على يدها طابوقة ، والثانية حينما مات أحد أقربائها . شعرت بالحزن يفور بعيدا في خلاياها ، وودت لو تبكي ، ولكنها حينما أدارت وجهها صوب برج الحمام . احست بفرح خفي . وذهبت باتجاه (البرج) فرات من خلال المشبك الحديدي الحمام يزدحم قرب الباب ، وحينما أطلقته ، طار عاليا في باحة الحوش وفوق الاجنحة البيضاء والسوداء لصفت الشمس . وعلا صوت اصطفاق الاجنحة ، وبسرعة أوقدت النار وأخذت تصنع لنفسها شايا .

ومن وراء جدار الطين . حينما كانت تلتقم الخبز والشاي . سمعت صوت « ملا راضي » :

– هل أنت جاهزة ؟

توقفت عن ارتشاف شايها :

– ابني مريض لن أستطيع أن أتركه .

قال لها :

– ولكنك تغيبت مرتين هذا الاسبوع . ولا أعتقد انهم سوف يسمحون بهذا .

قالت له بخوف :

– هل سيطردونني من العمل ؟

أجابها بعدما سعل سعلة قصيرة :

– بلا شك ، وأنت تعرفين ان أعمال البناء في الشتاء قليلة .

نظرت عاملة البناء الشابة باتجاه طفلها :

– لا أدري ماذا أصنع ، انه مريض جدا .

قال العجوز :

– ولا تنسين انهم يستطيعون أن يجلبوا عاملا آخر ليقوم بعملك ..

أجابت المرأة :

– أجل يمكنهم هذا .

فكرت قليلا ، ثم قالت :

– انتظرني ، سأرسل الطفل الى جارتنا .

تحلق الطيور عاليا وتحط في باحة الحوش وتلتقط الحب ، وتتزاوج ، وتصطفق أجنحتها ، وتحط فوق برميل الماء ، وتطير من جديد بمجموعة واحدة وتبتعد حتى تصبح نقاطا في السماء ، وعندما تتعب تعود من جديد . ولو كان صاحبها موجودا لنثر لها الحبوب فوق الارض وسقاها بالماء ولأعادها من جديد الى برجها الطيني الذي بناه من الصفيح وغطاه بالطين ، ولكنه الآن بعيد عن طيوره ينام هادئا بعدما مزقته شظايا الكونكريت ودفنته البناية التي بنيت بمواد مغشوشة . يستيقظ عند حلول الظلام ليزور المباني المهدمة ، وليلقي نظرة على طيوره وابنه الصغير ، وزوجته المتعبة ، وحينما يغطيهما بالاغطية تلتصق شفتاه اللزجتان فوق وجهيهما محاذران أن يتبلل وجهاهما بالدماء النازفة من فيه ويحلق بعيدا معطيوره يداعبها حتى الفجر ، ثم يذهب لينام نومته الهادئة ، وهو يحس بالدماء تنزف من كل خلاياه .

هو الصباح الرائع ، الذي يلون الوجوه بألوانه ، وفي الظلال ، وتحت الشمس ، وقرب الاشياء المشعة، ينعكس وجهها الرائع ، ويداها تحملان الطابوق أو مواد البناء الاخرى . وفوق الجدران المبنية ، أو التي في طور البناء ، يرى وجهها الموشوم قرب الحنك ، وفي رأسها تنمو أحزان كثيرة ، ولكنها في غمرة العمل المضني تنسى كل شيء الا وجه طفلها تراه قد كبر بسرعة ، وجاء الى هذه المدرسة التي تبنيها مع الآخرين، أجل سيتعلم في هذه المدرسة التي تبنيها أمه ، أحست انها تبنيها له ، ولاصدقائه الآخرين ، ولذلك فهي تخلط « الجص » جيدا ، وتنقله بسرعة وكأنها تريد أن تكمل مدرسة ابنها بسرعة لتراه في صباح الغد متأبطا كتبه متوجها صوبها . حينما رآها « حمدان » صديق زوجها توجه صوبها ، وبعد أن ابتسم لها قال :

ــ انك جميلة اليوم .

لم تتكلم ...

ــ أريد أن أتزوجك على سنة الله ورسوله ، وأنت تعرفين هذا .

ولكنها كانت تجمع الطابوق الذي تريد ان تنقله .

ــ زوجك كان صديقي ..

حينما رفعت وجهها صوبه قالت :

ــ ارجو أن تتركني ...

قال حمدان بصدق :

ــ انك متعبة ، أريد أن نتشارك في هذا التعب

ــ حمدان ، قلت لك اتركني .

ــ ابنك سأربيه مثل ابني ، انه ابن صديقي .

تركت الطابوق ، وحدقت في عينيه ، صمت وتراجع خطوة ، وارتجف ، وسمعها تصرخ به :

ــ حمدان نحن متعبون ، طوال حياتنا متعبون .

ــ أعرف هذا ...

ــ صدقني حينما يتزوج أحدنا يضيف لنفسه جبلا من التعب ...

ــ ولكنها الحياة ...

ــ لا أبدا ، أبدا ...

كادت أن تبكي ، وحالما لاحظ حمدان هذا ابتعد عنها ، وتمالكت نفسها واخذت تجمع الطابوق من جديد ... حتى حلمها الصغير بأن هذهالمدرسة ستكون مدرسة ابنها تبخر من رأسها ، ولم يبق في صدرها غير ذيل الحزن الجارف ، حينما تذكرت انه مريض جدا . وترتفع الايدي بمواد البناء فوق الرؤوس ليرتفع الجدار ، وفي السماء المخرمة كانت الغيوم تتجمع وتتكاثف ، وكلما تزداد برودة الجو يزداد تعرق وجهها ، وفي رأسها تنمو الشتاءات الساخنة ، الشتاءات التي تنغرز كالسكاكين في قلبها . في شتاء ماض حفرت الركام مع الآخرين بحثا عن زوجها . انها شتاءات حارة والعرق يبلل الوجه والثياب. وفي هذا الشتاء : حدقت في السماء ، انها سماء ملبدة بالغيوم ، والريح الساكنة، ومعنى هذا ان المطر على وشك النزول . وتخيلت الطرق مبللة وبيتهم منقوع تماما . وارتسمت فوق شفتيها ابتسامة حينما فكرت انها ستحتضن ابنها وتحدق في نار « المنقلة » وتسمع قطرات المطر التي تطرق الباب ، مثل ضيف خجول يجيء بعد منتصف الليل ، وتتخيله قويا يتقدم فوق الطرقات المبللة ، وصوت حذائه الثقيل يرن وسط الصمت المسحوق بين قدم وقدم . تحس بأقدامه الواثقة ، تتقدم من البيوت الواطئة الطينية ، ليطرق باب الخشب ، الذي يقع في فم الزقاق ، تفتح له الباب وتمسح من فوق رأسه قطرات المطر وتدثره بمعطفه الثقيل ويجلسان حول النار ويتشاركان برغيف الخبز وقدحي الشاي .

عندما بدأت أولى قطرات المطر تنفلق فوق الارض والرؤوس كان العمل قد انتهى . وفي طريق العودة استطاعت أن ترى سيدات رائعات بملابس غالية ، وأطفالا بوجوه موردة ، وشعرت بالدماء تتدفق في قلبها ، وانها تريد أن تحتضن ابنها ، أن تضعه فوق قلبها وتقبله بعنف طويلا والى الابد ...

البصرة (العراق)

دمي يحتل بركان الندى ...

عصام ترشحاني

من اين ابدا ؟
انها ذُبحت
على جبل « العزيز »
ونام اخوتها على دمها ،
مخافة ان يجامعها الحريق
فتحتويه ،
وينهضان الى القيامة
مرة اخرى
ابدد صيحتي
من اين ابـدأ ؟
الجهات تضيق
مقبرة .. تصير ملاعب الاطفال
يتسع الرمـاد ،
فتذبـل الاجساد
والطرق الجميلة تحتفي بدمارها ..
.. .. ..
.. .. ..
والشمس .. والفقراء ...
ان دمي استبد به الجنون
فكل حب ينتشي بغريمه
رابطت ناري الحزينة في الشوارع
من أين ابـدأ ؟
اقبلت خيلي الكئيبة للشوارع
كل اسمـاء المداخـل
والمنـازل
اشهرت غليانهـا ..
لكـن وجهك
مات قبل الفصح
وانهال الفناء عليه
وانهال البكاء عليه
من كل الاقاصي ...

— ٢ —

وبدات انت
خرجت من جثث الكروم
خرجت من انقاضها
وسكنت ذاكرة الجماهير الجديدة .
والزلازل ،
والمدى ..
وبدأت أنت ،
رسمت جرحا ساخنـا
وعشقتـه ،
ورسمت شعبـا
حاملا بيديه صاعقـة ،
ورسمت اسلحة
واطفالا واعنابا ...
وقلت : —
هنا دمي ينمو
ويزدهر الوصول
هنا دمي يحتل بركان الندى ..
ومضيت من حب الى وطن
ومن جوع الى جوع
ومن دم الى كفـن
كانت مسيرتك الجليلة تنتهي
في عقر مذبحـة
وتسـاق من مـأوى
الى مـوت
ومن موت الى مأوى ...
وتضيع ما بين الغياب المر
والسكين ...

— ٣ —

واظل في خوف عليك
أظل مشدودا
الى قمم الدخان ...
وحين تبصرك الدقائق
ارتوي فرحـا
واسأل مهجتـي
من أي مجزرة نجوت ؟
وكيف أخفيت العواصم خلف ظهرك ،
كيف اوقعت المسافة
بين راسك والرصاصة ،
وانطلقـت ؟
تقول اخبار الشواطىء
والمحطات البعيدة :
ان وجهك شاع ما بين الشظايا
وجهك اشتعلت رؤاه من الفجيعة
فاحتواهـا ..
— ايها المغلول بالارزاء
من نبع الرمال الى مصب الماء —
كيف جمعت موتـك
وانتشرت الى فضائك ؟
كيف ألغيت المراسم
والمدائن .. خلسة
نصبت مصائدها
المدائن خلسة فتحت مقابرها ..
يا أيها المسروق من رئتيك ،
كيف صعدت من سهل الضحايا
نحـو بعثك ؟
انني أرنـو
الى جبل الغزالة
حيث جسمك يرتدي
قمرا وسنبلـة
ووجهك يهتدي
بالسيف والشجر المناوب .
انني أمتد .
صوتي خنجر يحميك ،
صوتي يرتقـي
لمدارك المطري
صوتي يغسل الغابات
يركض في عروق الصخر والاوراق
يجلو عتمة الاسوار .. يجمعنا ...
يقول الخارجون على الكرامة : —
سوف نسرق عن سواعده القوية
جذوة الانهار ،
نتركه يفصل موته ،
ننزفه الابدي ،
او بمشيئة الاعداء
فاحذر ايهـا المسكون
بالرايـات والاجراس
والاوجـاع
دمـع الليـل
وامنح شرفة الوديـان ،
نار الارض ،
انـي صاعد ،
ودمـي يحدد ،
ان في عينيك حلم الانبياء ...

قصائد الاستعادات

عبد الزهرة زكي

● **قصيدة عن الانتظار**

يبرد فنجان القهوة
لم يأتِ !
الثلج يغطي
صمت زجاج النافذة ،
الزهرة تذهل
تحت حفيف الريح
وتعرى
لم يأتِ !
تفترق الطرق الضيقة ، امرأة
ناحلة
تجتاز الشارع .. شاحبة
لم يأتِ !
أرق
يثوي
تحت رداء اللحظة والكلمات
ونجم
يسقط
لم يأتِ !
أي نشيج
يغمر صدر الرغبة ؟
أي دوار ؟..
لم يأتِ !
الموسيقى
تهدأ
والمطر الساقط .
لم يأتِ !

● **تحولات المدن**

مدنٌ
تهبط
للبحر ؛ فتلقي
في الماء منازلها
مدنٌ
تهجس
خفق الارض
وتشمر
وسط الريح نوافذها
مدنٌ
تطوي
في الليل مصاطبها
مدنٌ
تهرب
مدنٌ
تمضي
تحت نديف الثلج ، وتعدو
مدنٌ
مدن
تهدأ
مدنٌ
تغسل ،
اذ تهبط للبحر ، سرائرها
مدنٌ
تذهل
مدنٌ
تذبل
مدنٌ
تخفت
مدنٌ
مدنٌ
ترحل
ترحل

● **الليل والخيل**

ليلة ، مرت
من ساحات منازلنا الخيل
شربت
من ماء منابعنا
وتهادت ،
من تعب ،
ثم تناهت
خلف الليل

ليلة ، كانت تهرع
من ساحات منازلنا
الخيل
لم نك نهجس
غير غبار حوافرها
وأنين الليل
ليلة ، كانت تكبو
في ساحات منازلنا
الخيلْ
غمرتنا
صيحات البدو
وغطتنا
ظلمات الليل

● **استعادة**

ورقٌ
يتساقط
جنب مقاعدنا
ورقٌ
نهجس فيه
نبض نهار
يتعثر ، أو
خفق حياه
ورقٌ
نقرأ فيه
ـ نقرأ ماذا فيه ؟ ـ
ورقٌ
نترك
في سقطاته
بعض هواجسنا
أو نأسى
له .

● **حسين مردان**

كم مرة
حاول امساك لياليه
من كتفها
أو ذيل ثوبها
كم مرة
حاول أن يقنع
طيش لياليه
أو أن يهدىء
روعها
كم مرة
. . . . . .
. . . . . .
لكنه ،
في كل مرة ،
يستفّ هول صمتها
فينتهي
الى الانين

البصرة ـ العراق



الشمس وقصص اخرى

نيروز مالك

١ ـ كوب من الشاي البارد .

قام من مكانه ، راح يدور حول نفسه كالبغل المعصوب العينين « لو بمقدوري ركل هذا العالم الحقير بقدمي. »، كانت الغرفة غارقة في الصمت والسكينة . الطاولة ، الكرسي . الاريكة القديمة ، الستائر المسدلة علىالنوافذ « أبهذه السرعة يمكن للانسان أن ينتهي؟ أية حياة تافهة، حقيرة هذه التي نشقى من اجلها ؟ » ، شعر بجفاف في حلقه كأرض عطشى .

ظل يدور في وسطالغرفة ، يبحث عن اسباب هذا الخواء في نفسه ، هذا الموت البطيء الذي يتسلل الى حياته « أشعر كأن مياه الحياة قد نضبت في اعماقي »، اخذا وجهه بين راحته ، تهالك على الكرسي مسندا مرفقيه على طرف الطاولة الدائرية .

كانت الطاولة مغطاة بخوان ازرق جاف ، فوقها مجموعة من الاوراق ، قلم حبر ناشف ، قصاصات ممزقة ، منفضة مملوءة باعقاب السكائر وبكمية من الرماد واعواد الثقاب المحروقة . وعلى مقربة منها ، قدح من الشاي البارد ، القاتم « هذا الاحساس بعقم الحياة اشعر به منذ طفولتي، منذ تلك الايام التي كان والدي يتشاجر فيها مع والدتي، يمسكها من شعرها ، يجرها وراءه بين التراب والاشواك. كان الناس يتجمعون حولنا رويدا رويدا . واخوتي ينزوون في البيت ويبكون . اما انا ، فكنت اترك المنزل واتسكع في الشوارع حتى ساعة متأخرة من الليل ، تفو ...» ، استقرت البصقة على الحائط ، قرب فراشة ميتة ، ثم أنزلقت الى الاسفل ، استقرت على طرف النافذة الخشبي الباهت اللون .

نظر الى المصباح المتدلي من السقف كالمشنوق. شعر بنوع من الارتياح من العتمة التي راحت تخيم رويدا رويدا . ابتسم ساخرا من نفسه « لن اضيء المصباح. لقد مللت رؤية الاشياء المحيطة بي ... الطاولة ، والسرير، واللوحة ، والستارة ، والكرسي ، والازهار الصناعية، حتى الجدران سواء غمرت بالضوء او بالظلمة ، تبقى هي هي لا تتغير .» ، تمدد على السرير بعد ان اغمض عينيه، غاص في اعماقه الخاوية بينما كان الليل يزحف الى وجه العالم .

٢ ـ أزهار من البلاستيك .

جمعت كتبه ، رسائله ، كل ما يتعلق به ، ثم اضرمت فيها النار ، وبعد هنيهة من الزمن لم يبق من اشيائه التي كان قد تركها بين يديها سوى كومة من الرماد ، كومة صغيرة لا تتعدى حفنة يد جمعتها في كيس ورقي به أزهار ، ثم وضعت الكيس على الطاولة : ماذا تفعل بكومة الرماد هذه ؟ هل تبقيها لديها ؟ لو فعلت ذلك ، لعانت

مجددا من العذاب اكثر مما عانت سابقا . هل تقوم وتفتح النافذة وتنثر هذا الرماد في وجه الليل المخيم على المدينة بثوبه الاسود ؟

تنهدت ، راحت تعبث بكومة الرماد الموضوعة امامها على الطاولة . ما لبثت ان اخفضت رأسها ، اسندته على ساعديها وراحت تتذكر يوم لقائها الاول به . يومها ، شعرت بنشوة من يملك العالم كله . بعد ذلك لم تعرف سوى الفرح .

قالوا عنها : عاشقة . فلم تنكر وقالوا عنها : فتاة طائشة . سخرت منهم . قالوا عنها : ستندم . ادارت لهم ظهرها ، وسارت مع حبيبها في الحدائق والشوارع ومقاهي المدينة ...

رفعت رأسها ، ثم قامت . خطت فوق أرض الغرفة مطرقة الرأس ، والدمعة معلقة بين اهدابها وهي تؤكد لنفسها : بان الحب الذي حلمت به طويلا غير موجود في هذا العالم ، لان الشاب الذي ظنت ، يوم وضعت رأسها على صدره ، انه سينسيها عذاب الحياة ، ومرارة الايام ، خانها ، ومضى .

مسحت دمعتها لتستكين الى ذاتها المكلومة وهي تنظر بعداوة الى كيس الرماد . كان الكيس مصدر عذابها الجديد . هل تنثر رماده في وجه الليل ؟ ام تقذف به في ركن من اركان الغرفة ؟

لم تستطع حسم الامر في نفسها . ظل الترددمسيطرا على ارادتها . فأحست بعجزها التام . استكانت الى شللها ، ثم تهالكت على الكرسي . ألقت رأسها الى الوراء مغمضة العينين ، ممزقة الذات ، وفي اعماقها يجول صراع قوي . بينما مهر ادهم يعبر امام عينيها براري موحشة ، مزروعة بالعيون ، واثار اقدام عظيمة . عشرات من حشرات حقيرة لا تسعى ، تسعى اليها باصرار ، باردة ، لزجة ...

انتفضت مرتعبة ، محدقة فيما حولها . استغربت : أبهذه السرعة أغفت ؟ ردت ظهرها الى الوراء ، استقر نظرها على كيس الرمال ، شعرت بخدر كبير في اطرافها ، تراخت ، تركت نفسها بين يدي عذابها القديم ـ الجديد .

٣ ـ طبيعة صامتة .

زجاجة خضراء منتصبة ، واخرى سوداء ممددة على الطاولة « لن تكون لي قيامة بعد هذه الهزيمة » داعب بحركة ميتة كوب الشاي الذي ابترد فيه السائل القاتم « لقد جرت الامور بطريقة لم اتوقعها ابدا ، كان الاجدر بي ان لا أتورط في مثل هذا الامر منذ البداية » ، عصر رأسه بين راحتيه وهو يحدق في خوان الطاولة الازرق « كان الحل في المرحلة الاولى ، سهلا ، حتى انه كان ممكنا تحويل بوادر الهزيمة الى نصر قبل ان تتعقد الامور وتصل الى ما وصلت اليه » قام من مكانه يضرب ارض الغرفة جيئة وذهابا « ما الحل ؟» وقعت عيناه على الزجاجتين والازهار الصناعية على الطاولة « باعتقادي انك تهول الامور اكثر مما يجب ، والخطأ الذي ارتكبته يمكن اصلاحه حتى في هذه اللحظة ، وبالتالي يمكنك الاستمرار مرة اخرى » ، ابتسم بسخرية ، وهو يلقي نفسه على السرير « الاستمرار ؟ هذه الكلمة بت اخافها حتى الموت . لماذا الاستمرار ؟ الكي أهزم مرة اخرى ؟ ان ارى نفسي وسط الساحة وحولي أعلام منكسة تشير الى هزيمتي من جديد ؟ » حلقت عيناه بتعب فوق سطح اللوحة المعلقة على الحائط « منذ سنوات طويلة وتلك البذرة موجودة في دمي . كنت اشعر دائما انني غير جدير بالحياة » ، اغمض عينيه على الازهار الصناعية والزجاجتين والمزهرية « رغم هذا الوضع فلقد استمررت في الحياة خادعا نفسي بقدرتي على مجاراة الاخرين » .

كانت العتمة في النافذة تعكس ظلالها على الطاولة ، تغمر كوب الشاي البارد « لا ادري لماذا تنمي في نفسك عقدة النقص التي تحسها تجاه الحياة . لقد اكدت لك أكثر من مرة : انك لا تعاني من اي عقدة ، انما شعورك النفسي بها ، هي التي وضعتك في حالة تحس من خلالها بأنك اقل قدرا ومكانة من الاخرين . قل لي : ما هي ميزات الاخرين عنك ؟ » ، ابتسم بسخرية ، لوى عنقه صوب ارجل الطاولة المغطاة بخوان قاتم « هل تبغي بحديثك هذا ان تنفحني القدرة على الاستمرار كما في مراتك السابقة ؟ ان كان هذا ما يجول في خاطرك ، فأنت مخطىء . لقد وصلت الى حافة الهاوية . فأنا لم اعد قادرا على احتمال هزائم اخرى ، لم تعد لي مقدرة على احتمال الضحكات والسخرية من الاخرين . هذا هو قدري الذي لا مفر منه » ، وهن صوته « انت مخطىء لا يوجد شيء اسمه القدر طالما تملك عقلا تستطيع الكشف به عن جوهر الاشياء ال... » ، حرك يده علامة الاستياء « انت والعقل ؟ هل تعتقد عندما وجدت نفسي اليوم مهزوما اني لم اكن املك عقلا ؟ او لم يكن عقلي يعمل ساعات صراعي الطويلة ، محددا لي النقاط والسبل والطرائق التي تفضي بي الى ساحة النصر ؟ » ، قام ، وقعت انظاره على المنفضة المملوءة بالرماد ، وقصاصات الورق واعقاب السجائر واعواد الثقاب المحروقة « انت عنيد ، لا تريد ان تفهم جوهر الامور ، لا تريد ان تبحث عن اسباب الهزيمة الجديدة التي عشتها اليوم . انت فقط تفكر بأنك هزمت . اما ان تسأل نفسك لماذا هزمت ؟ فهذه القضية غير واردة في ذهنك . »

مد يده الى كأس الشاي ، شعر ببرودة السائل القاتم فيه ، تركه وهو يبتسم بسخرية « لا تحاول نصحي وارشادي من اجل الاستمرار في هذه الحياة . لقد اتخذت قراري اثناء عودتي الى البيت » ، رفع وجهه

الى السقف ، ادار نظره داخل البيت : نوافذ ، ستائر ، طاولة ، أزهار صناعية من البلاستيك . كأس شاي بارد، منفضة سجائر ، لوحة حائط ، مصباح كهربائي مطفأ .

ثبت نظره في السقف ، تخيل مكان السلك الكهربائي حبل ليفي غليظ ، يتدلى منه رجل ازرق الوجه ، نافر العروق ، ممطوط اللسان والزبد يغطي صدره .

٤ ــ الشمس .

هذه القصص الثلاث ، كتبتها منذ عدة اسابيع ، وكلما حاولت تشذيبها ، كنت اعجز عن حذف كلمة منها ، او اضافة حرف واحد اليها، فأترك الاوراق من بين يدي ، مبعدا جذعي عن الطاولة ، ثم اسند ظهري الى مؤخرة الكرسي ، انقل نظري بين مسودات القصص وبين المنفضة المملوءة باعقاب السجائر وارماد واعواد الثقاب المحروقة.

رفعت نظري الى النافذة المغلقة ، المغطاة بالستارة الوردية المسدولة عليها بسكون تام. فأنا لم استطع بعد انتهائي من كتابتها ، ولمدة طويلة ، ان اغير حتى عناوينها غير الملائمة لها ، من عادتي ان اضع عناوين قصصي بادىء الامر كيفما اتفق . ومن ثم اغير العناوين مع عملية تشذيب القصص . أشطبها لاثبت أخرى مكانها أكثر انسجاما ، مع مضمونها ، ولكني اليوم ، ومع هذه القصص الثلاث تغير حالي . كنت قد قراتها مرارا ، باغيا ان اجد صلة بين هذه القصص الباردة ، المهزومة ، الميتة ... التي أثارت في نفسي مشاعر القرف . لذا كنت اتركها ، اترك القلم يسقط من بين اصابعي، ثم اقوم منسحبا عن الكرسي، مبتعدا عن الطاولة ، كأنني اهرب من مكان ارتكبت فيه جريمة ما .

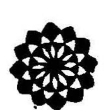
مددت يدي الى كوب الشاي ، فوجدت فيه السائل الاحمر قد ابترد . قمت متحمسا الى المطبخ لاعيد الحرارة والدفء اليه ، وعندما عدت رشفت منه اولى رشفاتي . فشعرت بطعم الشاي الساخن ، العذب . اشعلت لنفسي سيكارة ، ونفخت من انفي دخانها وانا انظر الى اللوحة المثبتة على الحائط . رحت أؤكد لنفسي بأن هذه اللوحة رغم الظلال التي تخفي ملامحها عن ناظري ، لوحة جميلة. اعرفها منذ زمن ، بها الوان تنبض بالحرارة والدفء والحياة خاصة الازهار الحمراء والبيضاء الموضوعة في المزهرية الوردية .

رفعت مسودات القصص الثلاث بين اصابعي ، قلبتها مفكرا، لقد وصلت الى طريق مسدود ، ستبقى مسودات بين اوراقي . ثم تساءلت عن الاسباب التي دفعتني لكتابة مثل هذه القصص . فلم استطع الاجابة . فانا لا اعرف حتى الان الاسباب التي دفعتني ان اكتب هذه القصص الباردة الصقيعية .

تلفت حولي ، كانت الغرفة غارقة في ظلال رمادية ، فاستغربت . لماذا لا اسحب الستائر عن النافذة ؟ وقبل ان اتحرك من مكاني، رشفت من كوب الشاي رشفة تمتعت بمذاقها الحلو ، العذب . ثم سحبت الستارة عن النافذة. كانت النافذة مغلقة ، ففتحتها ... اندفعت الى داخل الغرفة موجة من الهواء والاصوات الادمية . فشعرت بدغدغة في صدري ، وبانفاس نقية تتسلل الى رئتي. عدت الى الطاولة بخطوات عادية ، تناولت مسودات القصص ، ثم عدت ادراجي الى النافذة المفتوحة وانا اقاوم رغبة عظيمة في نفسي ان اخرج وامشي بين الناس،اطوف في الشوارع والازقة ، اجلس في الحدائق ، و...

دون ان ادري ، شعرت باصابعي تمزق القصص الثلاث الى مزق صغيرة ، صغيرة حتى وصل بي الامر اني لم أعد بقادر على تمزيقها اكثر مما وصلت اليه من تمزيق، فرفعت يدي ، ونثرت القصاصات عبر النافذة المفتوحة على صفحة السماء الزرقاء الموشاة باشعة الشمس الساطعة .

حلب



ملامح أولية لزمن صعب

عباس ابراهيم

ام تكمل دورتها الاشياء ،
وقلبي هاجسه وطن ،
يكمل دورته ،
ينمو ،
يترعرع ،
يكبو ،
ينهض ،
يغتاظ ،
فيأتي الفقراء ،
وأجهد كي أحتل مساحة عشق
فتنافسني العربات ،
وأصناف من حرس الليل ،
هراوات مستوردة ،
ابنية شاهقة ،
أرصدة ..
ودماء .
أحاول أن اتحرر من وهم المستقبل
« أن تأتي فارغة »
وأحاول أن أتحرر من همّ الماضي ،
« كيف أتيت ، ولم تأت القبلات »
أقول :
ـ يجيء الزمن العربي شريكا للحزن وللخوف
« دمشق مسافرة في وجع القلب ،
وأنتِ
وأحلام لم تتحقق بعد ،
واجساد يثقبها الموت
فتهطل دمعا » .
ولذا سأحالف ورد حديقتنا ،
وسأنحاز الى صنف النعنع ،
والزنبق ،
والطلقة ،
ويكون الماء .

* * *

اكتملت دورة حزني ،
ودليلي في حفل يفاعته ،
جند ،
وسعاة ،
يجيئون فيكتمل الوقت ،
ـ ولا وقت لدمع لا يصنع سيلا ،
لا وقت لأحزان قاصرة ،
لا وقت ...
وتمتلىء الطرقات ،
يقولون ب « حزن عربي » ،
وأقول :
« الفقراء احتكروا عشق الوطن ،
الفقراء احتكروا شهداء الوطن ،
الفقراء احتكروا ...
الفقراء ... » .
أسميك اذا حالفني الوطن
بلادا
أستبقيك على خارطتي وشما
وأسافر في مجدك ،
لكن :
« أنت تحاملت على أوردتي ،
فتقمصت نبيذا
وسكاكر ،
ثم تقمصت بلادا تعرف قاتلها ،
وتسير اليه ،
فيا امراة من عشب بري ،
أقرأ طالعها في عود ثقاب ،
أو قنبلة ،
كوني وطني ، أو لغتي ،
ولينهمر الاعداء » .
سآتي ،
ودليلي في قافلتي ،
طلقات ،
وحفاة .

حمص



دراسة لمجموعة «الأفواه» لعبد الرحمن مجيد الربيعي

تجاوز العادي الى اصطفاء النموذجي

محمد الجزائري

في استنباط حالة ابداعية خارج اللحظة الراهنة، خيال يجنح الى تمثل اجرائي.. انتخاب مثل لا تتحقق في الواقع بالمقدار المطلوب .

في الحالة الابداعية التي تقصها حكاية من الواقع وتجد اعادة تشكيلها في صيغة قصة ، أو رواية ، يكمن المعنى الاصطفائي (وأحيانا الانتقائي) ، للتمثل .

هنا ، تتداخل عدة الكاتب (أدواته) في صناعة العمل الابداعي ، وبالتالي ، في صناعة الاسلوب .. واذ ذاك يكون البحث عن لسان خاص ، نطق ، أو صرخة .. هما من هموم القاص الصانع ، لا الحرفي وحده ، ولا المتخيل وحده .

واذا راهن القاص على مصالحة النظم فمعنى ذلك انه يراهن على فنه .

بمعنى ان القاص (الفنان) لا يمكن أن يتطابق وينسجم ، تماما ، مع النظم ، أيا كانت أبعادها ، الا في حالة خلق النظام الذي هو في خيال الموهبة ، النموذج المثالي جدا .. وهو ، في حلم الثوري ، النموذج المتقدم جدا ، أو هو ، في خيال الطموح ، مدينة فاضلة تماما..

وما دام هذا الافتراض يقترب من الوهم ، اذن ، فثمة اصطدام حتمي بين الفنان ، القاص ، الحالم ، الثوري ، وبين مجموع الثغرات التي يلتقطها بوعيه أو ببصيرته ، والتي تشكل الخلل الاساس في مسعى تكوين النظام الطموح .

النظام هنا هو مجموعة ارتقاءات : نظام روائي متقدم ، نظام عمل ، حياة ، علاقات ، عوالم ... الخ .

وأي نظام ليس بصورة الكمال يبقى ناقص التأثير على الفنان ، وبالتالي فهو مسعى لان يبحث الفنان ويغذ السير على طريق الموهبة من أجل تجاوز العادي الى اصطفاء النموذجي ، اصطفاء نظامه الخاص الذي يرفض التقنين والسكون والرضا المرحلي ، واللجوء الى خدر الدعة ...

ان ذلك يعني ، على صعيد الفعل الابداعي : انتهاء.

لذا فان أي فنان مشبوب بحمى الابداع لا يركن الى حالة يستقر عليها ويحيلها الى تقليد يومي (عادة) ثم (قانون) .. بل هو يتلبس الحالات ويمازج بين ظرفيتها وازمتها ليخرج بحصائل لا تنتمي الى الحالة كليا ، بل الى المتخيل عنها : بعض الواقع اضافة الى الخيال الكثير ، تلك أبعاد صورة المثل التي يريد الفنان أن يقترحها للمستقبل ان هو امتلك من وعي الحاضر ما يغني زاده وماءه في رحلة التجريب .

القصة .. امتلاك .

وهي وعي واكتشاف أيضا .

واذا استطاعت أن تكون لسانا ، فذلك يعني انها اخترقت الحاضر ، واقتربت كثيرا من المستقبل ،

والا .. وبعكس ذلك ، فستكون ماضيا منسيا يوثق على تذكر طارىء ، أو شفة لا تقول كل الاشياء المسموعة، ولا يسمعها الجميع ، بمعنى ان القصة ، آنذاك ، تكون حكاية لا تنتمي الى الفعل الابداعي المستقبلي ..

لا يفترض القاص أن يسرد ماضيا بسيطا متعثرا . بل أن يبني ، كلما كان مبدعا ، من ذلك الماضي البسيط (أو المعقد) أفضل وحداته الدينامية .

الذي يقص ليس متنبئا ، انه راوية لحدث ما وقع، أو أضيف له ما يعزز قدرته على النطق ولو بفصاحة محدودة .

الذي يقص بجودة هو الذي يقص عن المستقبل بركائز الحاضر وذكراه ، والماضي وذكراه .. أي انه يشير ، لا الى الوراء .. بل الى أمام .

هنا ، يكمن أحد أهم عناصر ديمومة النتاج الابداعي ، فلا ينتمي الى النتاج الاستهلاكي الذي سرعان ما تفرزه معدة العقل ، كفضلة ، تماما كالغذاء الزائد على معدة صحية !

واذا كان القاص قد ارتاح الى محصلات ونتائج واكتشافات الذين سبقوه ، فلن يكون مبدعا أبدا .. لانه سينظر الى نفسه دوما على انه صغير ، وسيبقى كذلك، في حين ان الحياة وتجاربها من التنوع اللامحدود بحيث تمكن أي ملتقط واع من تمثلها في وحدات فنية لعمل ابداعي ..

واذا اعتبر كل قاص عجزه ازاء ما وصل اليه أساتذة هذا الفن من أعلام القصة القصيرة في العالم : تشيخوف ، موبسان ، تورجينيف ، كالدويل ، همنغواي .. الخ ، حالة تقتضي منه فك أسرارها ، أو الانتهاء اليها على انها المستحيل ، فلن يكتب أحد شيئا.

فكل عصر له حصانته وله أسراره ونكهته ومواده التأسيسية ، ويمكن لابن هذا العصر أن يستلف من مواده ما يوظف قيمة ابداعية في نتاج محسوس ، قد لا يصل به الى تقنية وأسلوبية الاسبقين . لكن المبدع المبدع هو من يرفض الانتماء الى الانظمة التي صنعها الاقدمون لعصرهم ولنفسهم ، ولا يستطيع ، هو الآخر ، أن يصنع نظامه بالقدر المستطاع ، وبالمحاولة الجاهدة .. هنا فقط نضع الاحترام مع أول لبنة تأسيسية ونعلق على صدر صاحبها وساما ، لانه لم ينتم الى عصره ، حسب ، بل أضاف اليه .. أي انه أسهم في صنعه وتطويره واغنائه . وقد يوظف كل مهاراته وخبراته حتى في الاعلام عن تلك الاضافة ، وان كانت بمقدار مسافة شعرة رأس واحدة ، الى أمام ..

ونحن المعاصرين لا نستنكف حين نعلم ان أقدامنا لا زالت في مستنقع التخلف رغم ان لباسنا المظهري يبدو من أحسن « صرخات » الحداثة ! ولا يضيرنا أن نعرف ان كل محاولة هي تكوين ، ما دامت معززة بنظرة جديدة (غير مستهلكة) ولا مستلفة بعمى .

واذا فاخرنا بأننا نريد ، وحققنا بعض ما نريد ، ونعزز تلك الرغبة بارادة تحرير ، ارادة كتابة ، تمتلك صرامتها ازاء الاكاذيب والمبالغات والثقافة النصف، و « شبه المعرفة » ، ثم .. ازاء الادعاء .. فتعطي – على مدى التجربة – ما يعزز الاصالة ، ويعمق التوجه ..

وفي السياقات الجادة تكون المحصلات محسوسة، كذلك كانت العرب ، وكانت الاجيال الادبية ..

كذلك كانت المصائر الابداعية تصوغها جهود عباقرة البشرية ، وبسطائها معا ..

ولان القصة حياة ، وهي حياة تتبدى عن موقف ، فان الاضافة – مهما كانت مرحلية أو ظرفية – فهي اضافة ، دفعة ، على حساب الباهر الآتي مهما بعد ..

هنا يكمن شرف المحاولات في التجريب وفي التعريف وفي الاعلام عن هذا التجريب بشتى الوسائل (المشروعة وغير المشروعة : مع ان هذين التعبيرين عاطفيان وفارغان ، فما هو غير مشروع عندك ، مشروع عند غيرك ، والعكس صحيح ، وفق الظرف ، الزمن ، البيئة الثقافية ، البيئة الاجتماعية ، والعصر ..) . أما اذا ألغينا تلك الاشياء (الوحدات) كأقانيم نظام ما ، فلا بد أن نقدم البديل الاروع ، والانضج .. ولو بمقدار !

ان الخروج من التباسات القص ، الى حقائق الواقع الصلدة (الكونكريتية) ، مهمة تجابه عين القاص وذهنه والتقاطات وعيه . لكنه أمام المادة الروائية (القصصية) كفن ، لا بد أن يرفض أن تكون الالتباسات شهادة زور ، بمعنى أن يحتوي الفن على غموضه المحبب ، بعضا من تأويلاته وخدعه البيضاء ومكارته ومخاتلته المطلوبة ، ولكن لا أن يرتمي بأحضان الخدع السود ، والكذب الذي يزيف وقائع الزمن ، وبالتالي يسهم في صنع « تاريخ » مشوه .

ان حل اشكالية الكتابة كونها « تمتص الآن الهوية الادبية كلها لمؤلف ما » كي لا يربك – النتاج – كمحصلة، الكشف عن التاريخ ، أو يربك المتلقي في الزمان والمكان الآخر .. كون القص هو ماض مهما بعدت مسافته ، ينتقل به المؤلف الى الحاضر ثم يقدمه الى المستقبل كقراءة سابقة – هذا القص ، لا بد أن ينتهي الى رفع الكلفة بينه وبين ازدواج السرد وتواقت الاحداث في الزمكان المعين ... بمعنى انه لا بد للقص (كفعل اختياري) وللقصة (كمنجز ابداعي) وللقاص (كفاعل كرواية) ، أن يخلص (يخلصوا) الى احتكامات هي ، في أبعادها ، اضافات وتعديلات وتصنيع أسلوبي ولغوي للمادة العيانية الجاهزة .. هنا ، ربما يلملم القاص يقينه في الشخص (البطل أو مجموعة الابطال) ، أو في (الزمن) ، أو في (القوانين) التي تتحكم بالعملية الابداعية ، وبالناس .

وكي يراهن القاص على نجاحه ينبغي الا يلغي ماهية الانسان على حساب زمنية القصة . أو أن تكون القصة تعبيرا عن « ماهية للانسان لا زمنية ، لا يدعمها بالنتيجة الا شكل خاص . نظام مفردات ونحو .. أي باختصار : لسان لغوي ! » .

هنا يسقط القاص بنظرة احادية للامور . ولا بد له ، اذن ، أن يراجع اشكالات حالته ، ويعيد تفكيك مفاصلها ثم أن يعيد تركيبها من جديد .

هذا الهم اقتنص عبد الرحمن الربيعي كما اقتنص غيره من الكتّاب الشباب ، لانهم لفترة ما (بداية الستينات ، وحتى أواخرها) ظلوا يعاينون تجربتهم بتجريبات لغوية وأسلوبية في محاولة لخلق فصاحتهم القصصية الخاصة ، وبالتالي في محاولة لخلق تفردهم كطموح .

لكن الامساك بهذا الطموح شيء ، والتفكير به شيء آخر ، تماما ، انه الاستحالة والممكن .

وقد تساقط على الدرب عدد من المهمومين بهذا الحدس ، وواكب آخرون النضال : انه نضال ، نعم ، لانه تخلق جديد لا ينتمي الى تأسيسات موروثة رثة ، بل يخلق (يؤسس) نظامه الجديد .

هل كان على الربيعي أن يصارع سمات متوارثة كلية القدرة تفرض عليه نمطا من الكتابة ؟

هذا صحيح ، أيضا ، رغم اننا قلنا ان الموروث لم يكن مفتنيا بتأسيسات .. لكنه ، مع ذلك ، كان موجودا في صنيفة « القصة الخمسينية » ، انه ليس نظاما متكاملا ، بل قنوات تصب في مختبرات فردية ، ضمن ظرفية الخمسينات كعمر ، كتقويم زمني ، وكأحداث وكرؤية ، وكوعي اجتماعي وسياسي ..

لقد الغى الربيعي وفصيل من الشباب عاطفة قصة الخمسينات ، وحدها المحدود بين الابيض والاسود ، بين الخير والشر ، الظالم والمظلوم ، الانسان والطبقة.. انهم رأوا الى تجارب الرواية الحديثة والقصة الاوربغربية ، وحتى رأوا الى « اللاقصة » وحيل الاساليب (الشكلية) ..

جربوا .. أجل .. لكنهم سقطوا في وهم العظمة، واعتقدوا بأنهم تجاوزوا الاساتذة العالميين والعرب !

أما القدامى من الرعيل الاول فقد تنكر لهم الشباب كلية .. لقد اعتبروهم كتّاب « مقاصة » (مقالة ـ قصة) ، فلم يتأدبوا عليهم ، ولم يدرسوا تجاربهم ليبنوا عليها .

انهم وضعوا طلاقا حاسما قبل أن يكون ثمة أي زواج بينهم ـ كتجارب وتأسيسات ـ وبين الماضي .

بعضهم سقط في التعالي ، وبعضهم سقط في تقليد ما هو خارجي (أوروبي) ، أما بأي مقدار من الفهم ، التمثل ، التأنسن ، المرونة .. فذلك لم يتسع له وقت الشباب « الستينيين » ليناقشوه ، انهم قدموا صرختهم ـ بالكلمات المباشرة ـ على طبق الصفحات الادبية . وطاولات المقاهي .. وعلى سبورة العمر محوا الماضي، وكتبوا بالطباشير الهش شعاراتهم «المتطرفة» .

وعبد الرحمن مجيد الربيعي ، في البدايات ، كان من بين هؤلاء ، بل كان على رأسهم ، تزعما ، وأكثرهم ضجيجا .. في البدء سقط هؤلاء الجدد بلعبة «الشكلية» لا « الشكل » المنتمي الى « مضمون » والمعبر عنه ، وكان من بين مظاهر الشكلية : السقوط في الزخرف اللفظي : الجناس والطباق والبديع ، دون الاهتمام بالجوهر .

كانت المزايدات هي في صياغة اللعبة الغربية بمقدار غرابتها ، وأحيانا بمقدار تلاعبها بالالفاظ ، وتكسير حدود لسانها ..

أن تجرب شعرا ، مقاطع ، سيناريوهات ، أي لعب .. ولكن ليس البناء القصصي المحكم .

الربيعي كان من بين المهمومين بالشكلية والتجريب ، أكثرهم حماسة وتطبيقا وممارسة ، ولكن بمراهقة قصصية تكمن في عدم التجانس مع النظام ، عدم التجانس مع الفرح المزيف ، وعدم التجانس مع الانماط الجاهزة « القوالب » .. وكانت تفلت من موقد الحداد شرارات تحرق أو تضيء ، لكن لها حجمها في اللسعة ... وكبرت هذه الشرارات وانتظمت الحركة ، وتعمق وعي الربيعي ، بعد أن قدم بيانه الصارخ في أكثر من حديث وتصريح وكلمة وجريدة ومنبر .. وكان أعلى الصراخ يعلن في المقاهي . من ثم .. هدأ العصف ، وراحت عينا الربيعي تتأملان الحصيلة : «التجديد» .. ذلك البحر الحلم ، مارسوا فيه أفعالهم وان كانت سباحة على الضفاف ، وليست في العمق .

وغرقت بعض المحاولات ، رغم ذلك ، ولم تنقذها صرخات الاستغاثة . وماتت أصوات وهي بعد شابة .. لكنها حملت ثقلا على عود لين فانكسر مبكرا قبل أن يشتد ويحتمل ..

الربيعي توقف أمام هذه الظاهرة وتوجس خيفة : كانت يقظته وصبواته في صراع انتهت الى « التأني » واعادة النظر ، وانتهى ذلك بوجوب رؤية الواقع والانصات الى ايقاعه الجديد تحت مكبس الثورة ، ثم استلهامه ..

كان المبرر للضجيج موجودا ، لحد ما ، في الماضي .. وكان « الفكر » العام السائد مشتتا (خاصة في أواسط الستينات) وصار أكثر تشتتا (بعد نكسة حزيران ١٩٦٧ .. بالذات) . ولكن حين هبت البشارة ، ومنحت الثورة بعدها الاعمق ، كان لا بد أن يكون للحاضر وعيه ، وتأثيره .. ولا بد أن يتحول الموقف ، من المعارضة السلبية الى النضال الايجابي .. ووجد

الربيعي نفسه وسط اللهب ، موقعاً ومسؤولية ، وكياسة ..

وحين يكون الكاتب وسط اعلام ملتزم ، لا بد أن تنعكس على نتاجه بعض التقنينات ، ولا بد أن يمارس قواعد محسوسة في التعامل والافصاح ، فقدم «الوشم» ـ رواية ـ لتمثل ذلك الماضي المحبط بنماذجه وتطلعاته .. ثم قدم « الانهار » ـ رواية ـ لتلامس الماضي القريب المرتبط بالحاضر .. ثم قدم « عيون في الحلم » و « ذاكرة المدينة » ـ قصص ـ كاحتماء يقظ بنماذج شخوصه المهمومين بالسياسة والعرق (الخمرة) والحياة .. واذ تأتي « القمر والاسوار » ـ رواية ـ لتكتظ بذكرى المدينة ، وبعض خيوط السياسة والاحداث التي كان وعي الربيعي بها وعيا فتيا .. ينثر بعض همومه في « الخيول » ـ قصص ـ ومن بينها قصة عن الشمال أقرب الى هم الاعلام منها الى هم الفن .

لكنه في « الافواه » ـ كقصص ـ يتجاوز ذلك الانصات لواقعية الواقع ، ويتمثل المزاوجة بين وحداته والتجريب .

بعض القصص ذات بعد تركيبي ، وأغلبها قصص طويلة (مع ان الربيعي يسميها قصصا قصيرة) .. وفي احداها (هموم عربية) ينتمي الربيعي الى تلك القواعد وتعاملات الافصاح عن الآني ، والمستقبلي ..

وهو ، وان فاض بالفرح المكتسب ، لكن موالا جنونيا حزينا ومتكسرا يظل يئن في داخله .. فلقد تكسرت بعض أحلامه ، وتشتتت بعض طموحاته وصبواته ، واهتزت ثقته ، فتغيرت صورة الرجال بآخرين : العلاقات بأخرى ، والوقائع أيضا ..

.. فقد أحبط الربيعي مرارا ، وترسبت مرارة الاحباط في أعماقه ، واذ تنفلت من بين أصابع كلماته وقصصه رغم الفرح المظهري الذي يزوق به بعض كتاباته الصحفية ، فان ثمة حزنا مترسبا لا يمكن أن يلغيه من خارطة سيكولوجية أبطاله .

كل ذلك وجد انعكاساته في قصص الربيعي .

وها هو يواجهنا بانتباهة يقظة في فنه ، انه يزاوج بين الواقعي والتجريبي في « الافواه » ـ كمجموعة ـ ويضع لمسات تطوره في الرؤية والتشكيل بحذر .. ولا يتوانى من أن يقدم لنا مفاتيح فهم العلاقة الجدلية بين القصة والفن ، وذلك بانتقاء مقولات ، هي ـ بذاتها ـ ملصقات تؤشر لنا طريق العلاقة ، قبل ولوج عالم قصصه في القراءة المباشرة :

« يا للاسف !.. لماذا هذه الاشياء وليس غيرها ؟ » ـ عن « بومارشيه » في « الاحمر والاسود » لستاندال ـ .

و « أتعلم على مَ حزنك ؟ انه ليس على شيء مفقود فقدته منذ زمن معين يمكنك ان تقول متى كان عندك ومتى ذهب ، وانما هو على شيء لا يزال حيا قائما فيك ، هو عهد أسمى من عهدك الحاضر تطلبه ، هو عالم أجمل من عالمك هذا » .

(هولدرلين)

هنا .. يواجهنا الربيعي باشارات ، هي في صميم العلاقة ، بيانات لما يريد أن يقوله (داخل بنية القصة) ، ولكن من خارجها ، بالاستعارة ، أو بالاستلاف من الآخرين .. ولا يكتفي بذلك ، بل هو يحلل تجربته في « الافواه » ـ كقصة ـ بمقدمة يكتبها عن نفسه وعن القصة .

يقول الربيعي : « ما زالت كتابة القصة عندنا عملية بحث وتجريب وذلك من أجل الوصول الى الشكل ـ الهوية ، اننا متهمون باستعارة الاشكال الاجنبية وتعبئتها بمواضيع محلية حتى عند أبرز الاسماء ـ نجيب محفوظ ـ مثلا ، ومن هنا وجب أن يكون بحثنا بمعزل عن المألوف والسائد .. » .

اذن ، فالمألوف والسائد ، هذه الثنائية ، كانت هما ليس في الحاضر القصصي ، بل منذ الستينات . وفي حينها « وقعت القصة في مطب اللغة (يقصد اللفظية) وسادت قناعات ظن فيها الكثيرون ان العمق والتجاوز يأتيان من الكلمات وبناء الجمل القصصية ، لكن هذه المسألة ـ والمأخوذة من الشعر أصلا ـ قد توقفت ، وان كان البعض ما زال مخدوعا بها بعض الشيء » .

في « الافواه » ـ القصص ـ يتجاوز الربيعي هذا الاشكال ، انه يستكمل ما بداه في « هموم عربية » ـ وذلك بتركيز الاهتمام على التركيب الكلي للقصة ، وليس بمفرداتها وجملها ، ومن خلال لغة قريبة من المتلقي ، لغة تعطي نفسها كمفردة وجملة بسهولة ، لكن سرها ليس في غموض مفتعل عقيم ، وانما في الكشف عن الواقع والدلالة الاخيرة ، وهو أمر قد لا يبهر القارىء المشوه ـ بفتح الواو ـ اذ انه يحمل خدعة الحكاية وربما الريبورتاج ، ولكنه قد يدفع بالقارىء المتلك لدينامية الوعي وتطوره لان يسترجع مسائل أكبر من الحدود التي دار ضمنها .. » .

الربيعي أراد أن يلخص حقيقة متمثلة في نموذج ، لكنها حقيقة شاملة . فالقصة ـ أية قصة فنية ذات رؤية ـ هي حالة تعارض مع الحكي ... اي ضد السرد (الكلام) العادي الذي يتفوه به أي راوية فطري (أو شعبي) ..

والعديد من القصص الستيني تتمثلَ فيها « صفة انغلاق غريبة عن اللسان المنطوق » بحيث تحولت الكتابة الى وسيلة انقطاع لا وسيلة تواصل .. انها « فوضى كاملة تجري خلال الكلام وتعطيه هذه الحركة الملتهمة التي تبقيه في حالة تعليق مستمر .. » .

ثمة تعارض بين الكتابة ـ القصة المكتوبة بفن ـ والكلام ، قوامه : « ان الكتابة تبدو دوما رمزية منطوية على ذاتها تنزلق في وجهة سيرها العلني مع المنحدر الخفي للسان ، في حين ان الكلام ليس الا ديمومة مجموعة من الاشارات دلالتها في حركتها » ـ كما يقول رولان بارت ـ .

لذا فمن الصعوبة بمكان أن تحقق الكتابة ذلك التواصل ان لم تكن مرتبطة أساسا بفهم دقيق وكامل لشروط نموها (حتى لغراماطيقيتها ، وفي القصة : لوحداتها التركيبية مضافا الى وحداتها اللغوية) في ذهن المتلقي ، في الحاضر والمستقبل ، بحيث تصبح مادة الكتابة (القصة) مادة خلودية ، مادة لا تدخل في صلب التراث المنغلق على نفسه وهي لم تتجاوز بعد عامها الاول على الولادة (النشر) . فالقصة التي لا يتذكرها القارىء بعد قراءته لها بأسبوع أو يوم ـ أو سنة على أحسن الاحوال ! ـ تفتقد قدرتها على الديمومة ، بمعنى انها ولدت مشوهة (وهي تحمل أسباب وفاتها معا) .

أن القصة التي تتجاوز اللسان النمطي الى اللسان الدائم الحضور ، هي كائن يتنفس في صلب تلقيات وثقافة ومعارف وخيال عصر بكامله ، ان لم يكن مستقبلا بكامله (كأعمال : تولستوي ، همنغواي ، ديستويفسكي، هوغو .. الخ) . هنا تكمن حمى الرغبة في التجاوز لدى الشباب ، وتصل ، أحيانا ، حد المرض ، أو التصادم بين القدرة الذاتية والطموح ... ان قصاصينا يتكلمون برغبات كبيرة لكنهم ، في التنفيذ ، الممارسة الفنية ، التخلق ، يكون ثمة انفصام خطير بين «التنظير» وبين « الفعل الفني » .. ودوما تكون أفكارهم النثرية أكبر بكثير من صياغاتهم القصصية (أو الابداعية) .

وهذا الانفصام يؤدي (وقد أدى بالفعل) الى ارتداد عنيف لدى البعض . فيطلقون فنهم ويتباهون بخيالات أو طموحات لفظية ، استعراضية ، وهامشية، هي ، في مجملها ، تعليقات على أحداث وليست رسما لها أو معايشة واعية .

انهم يتحولون الى رواد مقاه حذقين ويتباهون بفكاهات مجانية يطلقونها على المبدعين ، وان لم يكن ثمة من يهجى ، فتتحول فكاهاتهم ضد انفسهم !!

والربيعي استطاع التخلص من شباك هذه اللعبة وقاوم اغراءات كسلها وجاهد أن يقطع الشوط الذي يوصل الى الهدف الابداعي أو يؤدي اليه .. لذا فقد كان ، ولما يزل ، مهموما بالكتابة القصصية وبالكلام عنها .. معا ! وهذا الفيض من (العافية) الذاتية له مردوداته بين كم الانتاج العربي الذي تحول عنه القارىء.. فالنوع هو ما يهم القارىء الواعي ، كذلك فالنوع هو ما يهم الربيعي في المسعى وفي المحاولة .. والنوع فعل جلد مشاكس لا يمنح نفسه دون مكابدة وعناء وصبر طويل .. اما « التمارين » القصصية التي يجريها الربيعي بين كل قصة جيدة وقصة ، فهي لن تؤخر العملية الابداعية بقدر ما ترتب تفاصيلها بنظرة أكثر حرصا وعناية ..

تأتي « الافواه » ـ كمجموعة ـ امتدادا لـ « عيون في الحلم » ـ القصة الطويلة ـ لا « عيون في الحلم » المجموعة .. وهي تتجاوز « الخيول » بكثير ، وتحتوي على أحسن تقاليد « ذاكرة المدينة » .

ولانها تدقق في ثنائيات : التماثل والتضاد ، الاحباط والمقاومة ، الواقعية والتجريب ، الحاضر والماضي ، المرأة والرجل ، الذاتي والجماعي ، التراث والمعاصرة .. فهي ترتب نفسها وخصائصها على نمط أغنى وأكثر جدوى من زهو القصص الاولى : المراهق ، الوعي . فالافواه ـ على عددها الكمي القليل ـ تشكل مادة غزيرة للمناقشة ، وبالتالي للتواصلات التجريبية والممارسات ، والنشاطية الانتاجية لعمر ابداعي كان الزمن فيه كبيرا ومتكسرا وشرسا رغم سنواته القليلة..

في « الافواه » ـ كمجموعة ـ تبدو القصص « كتابة وحيدة الخط » ، لكنها ، في التأمل ، تنطوي على هوية تمكنها من الاستمرار في الشرح وفي التداعي.

انها ليست استعارات مقننة تقنينا قاسيا كالنظرية، وهي ليست انفلاق شكل يأتي من تضخيم بلاغي ، بل هي سهولة في المفردة وصعوبة في التشكيل . فالمفردة ، هنا ، أليفة ، صديقة ، ودود .. لكنها حين تتآصر مع غيرها تشكل حياة ، وتجسد تلك الثنائيات التي نوهنا عنها .. والتي تتصاعد ، تجريبيا ، حد الالتحام بالتاريخ كتمثل وكاستنطاق جديد (كما في القصة الاخيرة بالمجموعة : « ثرثرة على مائدة الملك الضليل » ..) .

وهذا المألوف اللاعادي الذي يطرحه الربيعي لم يكن « شكلا نحت بمقياس المأساة ، بل كان وجدانها » . فالابتهاجات التي يحققها الربيعي لنفسه بعد كل كتابة قصصية ، لا يكتمها لنفسه ، بل يوزعها على الوسط الثقافي كفعل مشاع ، انه يبشر بصناعته ، يضيف الى الملاحظة ، ملاحظة وقصدية .. وهو يحرك الجو المحيط به باتجاه ممارساته .

وقد يعتبر البعض هذه المهمة اعلامية ، لكنها في الحوار المباشر مع التجربة والتلقي وعبر الوسيط (الجريدة ـ الناقد) تضيف اضاءات الربيعي الى أعماله بعدا تفسيريا ، أو تعليميا .. لذا فان وجدان المأساة حين يتجسد في وجدان التعبير ، عن شكل ما ، وعلى شكل ما (وسيلة) ، فذلك يقترن ـ أساسا ـ بهموم القاص والروائي ، ليس في عملية الكتابة وحدها ككفن ، بل وعبر فن الاشارة الى العمل الابداعي ..

فما هي الحصيلة التي نخرج منها في هذا المجموع القصصي الجديد : الافواه ؟

اننا نكتفي ، بهذهالمقدمة ، بالاشارة الىالاضافات، الاختبارات ، التجارب ، وبشكل عام نشير الىالتجريبية والخروج على النمطية ، والعادي ..

ولا نخوض في التفاصيل لان ذلك من مهمة « النقد التطبيقي » لـ « الدراسة ـ المقدمة » :

ـ يكتفي الربيعي ، أولا ، بتقديم خمس قصص تتميز بطولها النسبي ، فهي تنتمي ، من حيثالمساحة ، الى القصص ـ الطويلة مع تفاوت المدى الذي تحتله كل واحدة منها .. وبالذات « هموم عربية » و « ثرثرة على مائدة الملك الضليل » . والبعد الذيتحتويه هذه الاطالة، لا يكمن في عدد الصفحات ، بل بالمدى الزمني الذي تتداخل فيه الازمنة . فقصة « عجيل » ـ مثلا ـ تمتد أفقيا على مساحة ماض متشعب ، منذ الطفولة ، وحتى الامس القريب ، وتمتد عمقا ، في هموم واحباطات « عجيل » .. فالقصة ، هنا ، تستلف نفسها الروائي من كونها مشروع رواية ـ قصيرة ، أكثر منها قصة قصيرة .. وبهذا المعنى فهي امتداد لقصة « عيون في الحلم » ، اذ ان القصة القصيرة ، في العادة ، لا تستلف هذا البعد الزمكاني ، بل قد تكتفي بتصوير حالة في لحظة زمنية ، ساعة ، أو يوم .. وربما تمتد فيها التداعيات الى ماض مؤثر على الحالة أو مسبب لها أو متعلق بها .. ولا تنسب القصة القصيرة لنفسها مهمات متشعبة ومعقدة وكبيرة هي ، بالاساس ، من مهمات العمل الروائي ..

والربيعي ، ثانيا ، يزاوج بين التضاد والتماثيل ، وان كل قصصه تعتمد على ثنائية : هناك دوما امرأة في مقابل الرجل ، احباط في مقابل المقاومة ، يأس في مقابل ومضة الامل ، حاضر في مقابل ماض شرس وحزين ، ذاتي في مقابل نماذج ذات بعد جماعي ..

وعلى مستوى التقنية تمتد ثنائية رئيسية تكمن في المزاوجة بين « الواقعية » و « التجريب » ، بين « الحاضر » كماض بسيط وقريب ، وبين « الماضي » الابعد .. ثم بين « التراث » و « المعاصرة » . وهذه الثنائيات هي التي تطرح الحالة ومعادلها الموضوعي ، ربما بالايماء أحيانا ، ولكنها في الغالب تشير ... حتى وان كانت الحالة هي الاحباط بذاته : كما في « من يعرف الغريق » . هنا ، المعادل الموضوعي (والحياتي) يكمن في البداية وليس في النهاية .. فالبطل يعيش فرحة الخارجي ، لكنه يختنق به ، يغرق ، بعدئذ ، حين يعود لغربته ويتذكر ماضيه ومدينته وأحزانه !..

وثالثا : يستفيد الربيعي من المقدمات ذاتالعلاقة بجوهر القصة لا بشكلها ، أي انه يستعين ببعضالفقرات من الاعمال العالمية أو الامثال ، لتكون اشعارا بفكرة القصة .. انها معادل موضوعي ، من زاوية أخرى .. كما في مقتطفه عن « الاحمر والاسود » لستاندال ، في « من يعرف الغريق » والامثال العربية في مقدمة « ثرثرة على مائدة الملك الضليل » ، وهذه الاشارات هي حوافز للذاكرة ومفاتيح للفهم ، وهي تعويض عن بعض ما لا يستطيع الربيعي أن يقوله أو يقصه ..

هذه الخصيصة تتداخل ، رابعا ، مع خصيصة « الونبة ـ الشرح » كملصق يمتزج مع العمل كجزء من بنائيته .. كما في مقتطفه عن « كتاب حول الفنالحديث لجورج فلانجان » في قصته « من يعرف الغريق » ، وبالرسائل التي يضمنها بعض قصصه في السابق ، كذلك بالهوامش أو المصادر التاريخية كما في روايته « القمر والاسوار » ..

ومثل هذا الفعل بقدر ما يعمق مسار القصة ، فهو ينبه الى ان القصة مهما كانت تبدو واقعية ، فهي تبقى « قصة » .. لا واقعا .. بل شيئا شبيها بالواقع ..

وهذا المنهج يستلفه الربيعي من « التغريب » عند برتولد برشت .. خاصة وان قصص الربيعي هي ـ بمجموعها ـ حالات متنوعة للاستلاب والغربة ... وكما أن الفرضية لا يمكن أن تكون واقعا ، فان الربيعي يستفيد من الوثائق والمقتطفات ليذكرنا بأن ما يقدمه لنا ليس مادة تسجيلية مستلة من تقارير اجتماعية رسمية .. بل حالات ذات بناء فني ، هو في الصميم من العمل القصصي وفي الصميم من الواقع .

وكما يستعين الربيعي بتلك الركائز ليقوم بها معمار قصصه ، فهو يستعين ، خامسا ، بالعناوين الفرعية أو الترقيم ، كتقطيع للمشاهد .. انه يعمد الى المونتاج المتوازي في السينما ليوظفه في القصة .. وتبدو القصة لديه ، أحيانا ، أكثر من قصة ، أكثر من حدث ومكان وزمان وروي .. لكنه يجعلنا نعيش تلك التصالبات والتداخلات ، ضمن عملية التقطيع .. وكأننا نقرأ قصة داخل القصة ..

وفي « ثرثرة علىمائدة الملك الضليل » مثال واضح لهذا المونتاج المتوازي ، حيث يقدم لنا قصة بطل من عصرنا ، من يوميات حياتنا ، وآخر هو امرؤ القيس .. كذلك في « عجيل » حيث يقدم لنا عجيلا ، في أكثر من زمن ومرحلة ومكان .. والاعتماد في « عجيل » على العناوين الفرعية ، أس الاساس في بناء هذه القصة..

وسادسا : يستفيد الربيعي من تجربة «فولكنر» بأن يقدم الشخوص تحت عناوين أسمائهم ، كما فعل قبله غائب طعمة فرمان في « خمسة أصوات » وجبرا ابراهيم جبرا في «السفينة» .. ففي قصته « الافواه » يوحي الربيعي بأنه يستل معلوماته من « وقائع يوم من تلك الايام » وكأنها « وثائق » . صحيح ان « أبا زهرة »

لا يتكلم عن نفسه والآخرين مباشرة ، كما فعل جبرا وغائب ، ولكن (الربيعي) يحضر بطله في سياق التعريف به أو الاحاطة به .. ثم يأتي « حمدان » و « سمير » و « جودي » و « صاحب » ضمن هذه السياقات .. لكن الربيعي يقدم أوراق اعتماد هؤلاء متشبها بتحقيق الهوية : (قراءة في أوراق شخصية) : الاسم ، العمر ، الكنية ، الحالة الاجتماعية ، الامراض !! مسائل أخرى أو معلومات أخرى ..

ثم يلملم الربيعي أبطاله ولا يقتنع الا بأن يكمل لنا الصورة في « تساؤلات تبحث عن أجوبة » .. ليعلقنا مع مصائر أبطاله ..

من ثم فان الربيعي ، سابعا ، يوظف قصص التراث في مزاوجة مع الحدث اليومي وعبر تشكيل متداخل ، كما أشرنا الى قصة « ثرثرة على مائدة الملك الضليل » . لكنه يلجأ الى التغريب وصنع المشاهد اللاواقعية أو ذات التصور الفنتازي أحيانا، أو الكابوسي كما في نهاية « من يعرف الفريق » وفي « عجيل » ، مستفيدا من الاسطورة ، أو الميثولوجيا ، ولو بمقدار ضئيل ..

كما يستعين الربيعي بالخبر السياسي ويوظفه في بناء القصة بالشكل الذي لا يتقاطع مع السياق الفني ، مع ان « الخبر » ـ يبدو ظاهريا ـ وكأنه ملصق كلامي أو اخباري متطفل على روحية وأسلوبية القصة ـ كما في : هموم عربية ـ لكنه في الصميم من نوازعها وملامساتها .. وهذه الاستعارة هي التي تجعل القصة قريبة من الروح التسجيلي أو القصة الوثائقية ، ولكن برؤى فنية .

اما بالنسبة لبطل الربيعي ، فيكون دائما ذلك المحبط .. مثقفا برجوازيا صغيرا على العموم ، رجلا أو امرأة .. وهو محبط دوما في مقابل حالة اجتماعية .. حدث .. عشق أو خيانة .. أو سقوط سياسي .

وكل الذين يحيطون بالبطل (المركزي) في القصة ، هم جماعيون في امكانية تعميم أحزانهم أو بعض فرحهم قصير النفس ، أو اشكالات حياتهم .. لكنهم فرديون في طريقة طرحها أو في شكل تصرفاتهم ..

ومع ان بطل الربيعي (أو من يحيط به) يحاول أن يتمرد على نفسه أو على واقعه ، فانه دوما ، يثرثر كلمات التمرد . أما الفعل الثوري (المتمرد) المباشر فضعيف في الغالب لان حجم الاحباط أكبر في هذه القصص من « شكل » التمرد كوعاء للرفض .

وحتى الذين يتوهجون بعاطفة البطل الايجابي (في المفهوم الواقعي الاشتراكي) لا يشعون الا في زوايا محدودة أو بعيدة من عوالم القصص ، انهم يتألقون أو يومضون للحظات ثم يذوب وميضهم في البعيد المتناهي وكأنه استحالة ليست سهلة التحقق ..

وبطل الربيعي لا يمكن أن يعيش في قصصه دون امرأة .. فالمرأة تشكل طرف المعادلة في ثنائية القصص.. ان لها حضورها الدائم ، اما مباشرة كتصرف ووجود وحوار وممارسات جسدية ، أو كتخيل أو حافز للتذكر والتداعيات ..

المرأة في قصص الربيعي هي اشتهاء البطل أو صورته أو مرآته أو مناخ انعكاساته النرجسية أو أرض بطولاته و « غزواته » الجنسية !

ودائما يكون البطل المحاور ، ودائما يكون القائد . ففي قصص الربيعي لم أر امرأة بطلة تقود أحداث القصة وتنميها عبر خصوصية أفعالها وتطورات هذه الافعال .. بل دائما هي الشخص الثاني .. مع انها شخص كثيف التأثير ..

ثمة سمات أخرى لا تنسحب فقط على بعض قصص هذه المجموعة ، بل وعلى غيرها أيضا ، اذ نلاحظ ان بطلا أو أكثر من أبطال الربيعي يكون دوما رساما أو مهتما بالفن التشكيلي أو معلما أو مثقفا ..

وهذه الحالات لبطله (خاصة الفنان التشكيلي الذي كان) يقدمها تعويضا عن احباط آخر .. لازمه في حياته .. فقد رغب الربيعي أن يكون رساما ، ودخل معهد الفنون الجميلة لهذا الفرض ، لكنه لم يستطع أن يكون الرسام النموذج ، ولا الناقد التشكيلي النموذج ، اذ ان القصة والرواية أصبحت عالمه الاكثر غنى ونضجا، لكننا نرى تجربة الفن التشكيلي تخترق أجواء قصصه وفيها يتبدى البطل رساما مشهورا أو ناقدا متميزا ، ويكون ذلك سببا لجذب اهتمام امرأة ما ، أو تذكر حالة ما (من الماضي) ، أو لقاء حدث تكون فيه المرأة طرفا أساسيا ..

واذا كان بطل الربيعي يتذكر ، فهو وفي لمدينته الجنوبية يحنو عليها ولا ينساها ، هي دائما ضمير المقارنة ، والموال الحزين الذي يوقظ فيه حنينه للماضي الشعبي أو النضالي أو الاجتماعي ، حتى وهو يسوح في المدن الجديدة تنثال تداعيات « الناصرية » قوية وحادة على أزقتها وناسها الفقراء ..

ان السياحة والصداقات والمغامرات العاطفية والنزوات مع بطلات شقراوات يرقط النمش وجناتهن البيض ، أو مع نساء سمراوات يمنحن اللذة لاول نازل في « بانسيون » .. لا تحجب عن ذاكرة الربيعي نساء مدينته الجنوبية وحبيباتها ، وصداقاته البريئة الاولى ، أو مغامراته الطلابية ، ومراهقته ..

انه حتى في تلك الابتهاجات والصبوات السياحية ينتهي الى السقوط في الحزن كحجر يلقى ببئر .. وكأن للاحباط المزمن أذرعا أخطبوطية تلتف عليه وتسحبه الى الاعماق .. ومع ذلك فاننا نرى الى أبطال قصص

الربيعي وكأنهم ينشدون الانطلاق والحرية ـ في أول فرصة تتوفر لهم ـ للتعويض عن ذلك الكبت المزمن .. لذا تكون المرأة الاخرى (التعويض أو التفريغ) طرفا في تلك « البطولات » .

من ثم فان أجواء قصص الربيعي لا تخلو من مخمورين ، بل انها لتكتظ بهم في حوارات ساخنة أو شجية أو رثائيات للنفس وللواقع .. أو سخرية مرة من النفس والحياة ..

وكأن « العرق » العراقي يفتح نفوس وذاكرة هؤلاء على شرفات عريضة .. لتنطلق ألسنتهم بجراة اليأس أو الظلم أو اللامبالاة .. أما في صحوها ، فان تلك الالسن تكون حذرة في العادة ومترددة ..

فالمخمورون في قصص الربيعي لهم حضورهم المزدحم ، وهم في الغالب حزينون جدا ، « يتحدثون بالسياسة » ، ويتمردون تمردات صغيرة ويطلقون الشتائم دون حساب ، ولكن الخوف دائما يركبهم ويحاصرهم احباط دائم حتى في غثيانهم .. والربيعي حتى في « الافواه » لا يبتعد عن بعض سمات هؤلاء المخمورين ، فهو لا ينساهم ، عبر « البطل الواحد » أو مجموعة الاشخاص ..

وصحيح ان نموذج بطل الربيعي هو ذلك الشاب اليافع الطويل دائما « الراسخ كجدار » أو « العريض المنكبين » الذي يتأمل نفسه أمام (**المرآة**) او امام (**المرآة**) باعجاب ذاتي بالنفس لحد كبير .. لكن هذا البطل حزين دوما ، منخور من الداخل ، ومتمزق ، مهما كان انسجامه الظاهري مع الاشياء والآخرين ، يبدو طبيعيا .. لكنه انسجام اللاانسجام ..

انها « انسجامات » قصيرة النفس ، مؤقتة ، وفي طريقها الى الزوال .. لذا فهي صبوات بطل مفعم بحذره ومشدود الى جذره الاجتماعي : الريفي ، سريع الغضب ، سريع اليأس ، سريع العطب ، سريع التذمر ، المحب باندفاع .. والذي لا يعرف الكراهية ، شديد الانكماش والعزلة في مواجهة أول ضربة أو انكسار ..

ان « عجيل » ـ مثلا ـ هو البطل الذي يمكن تعميم حزنه في كل ابطال عبد الرحمن الربيعي ، في مجمل قصصه .. انه تكثيف حزن ذلك الرجل الجنوبي المسحوق والثائر المحدود الحركة ، والذي مهما يحقق من نجاحات صغيرة فان شعوره الدائم بالاحباط ظل يلازمه ، وسيلازمه أبدا .. لان الطموح الذي ينشد ، لم يتحقق في البدء ، وترك حزنه مترسبا في النفس ، حتى لو تحقق على مشاوير ..

* * *

وبعد : فان الربيعي عبد الرحمن في « الافواه » يعبر عن جيل يجد في « كل كتابة راهنة مصادرة مزدوجة ، فمن جهة : انفصام ، ومن جهة أخرى : تباشير حدث » .

لان الكتابة الادبية ، على مثال الفن الحديث في مجموعه ، هي « الحامل لضياع التاريخ وحلمه معا » .

فالكتابة بوصفها ضرورة « شاهد على تمزق الالسن ، غير المنفصل عن تمزق المجتمع ، وهي أيضا بوصفها حرية وعي هذا التمزق والجهد الذي يريد تخطيه » .

ولان الربيعي يحاول تجاوز عزلة الكتابة ، فهو يتطلع الى سعادة الكلمات ، والى كمال عالم جديد يبدع لسانه بشكل مروع ..

ان الربيعي يتمنى ان تصبح حالاته القصصية عبورا الى المستقبل . فالماضي ، عنده ، لا يلجأ الى الاستكانة والهدوء ، فهو ماض مشحون بالتناقضات ، والصراع ، والمزاوجات ، والتضاد .. ولانه لا يتورع عن تقديم خصوماته ضد الشكلية واللفظية في مسعى لخلق « شكل » هو جزء من « مضمون » منظور ، يحمل في سماته المحليـة ، أفقه الانساني ، فهو يحاول النهوض بتجربة ذات تفرعات ، هي في ضمير الحاضر القصصي استذكار .. وربما تكمن مستقبليتها في انها تخاطب ضمير المستقبل باشارات وعي ، تتضامن لانجاز المشروع الطموح ..

لذا فالافواه ـ كتجربة ـ هي نهوض بتأسيسات ذلك المشروع ..

من هنا نجد الربيعي يتعذببمشاريعه (بقصصه) وبانتشارها ، ويمني نفسه دوما بانتشارها ، لذا فهو مثقل بهم احتباسها ويناضل ضد كل حدود وكل سجن يجعل هذه المشاريع غير متوفرة على حضورها الكامل..

ومع ان الربيعي تجاوز أرضه المحدودة الضيقة ـ من حيث انتشار نتاجه ـ (وهو جزء من حصار النتاج العراقي عموما) .. لكنه ، بالقياس الى غيره ، حقق نجاحات منظورة في المدى الذي استطاع به جهده الخاص أن يوصل صوته ، (نتاجه) ، مشاريعه ، حد أن انتبه اليه أكثر من كاتب ليخصص له دراسة أو بحثا أكاديميا أو أطروحة دراسات عليا ..

ورغم ذلك فهو يبحث ، بعد ، عن تحقق الرغبة في أن يكون على كل لسان ..

في « الافواه » ـ الكلمة المجردة ـ تكمن تلك الرغبة أيضا .. ان « عنوان » هذه المجموعة ، ليس وعاء للاستقبال والتلقي (كما في منطقها الشكلي : أداة

لايصال الطعام - الديمومة الى الجسد البشري) بل هي الوسيلة التعبيرية ، من الافواه تنطلق الصرخة ، ويتشكل اللســان .

وبالتالي - فالافواه ، الكلمة والعنوان والمجموعة - رغبة للافصاح ، رغبة لتشكيل لسان مشاع ومنتشر ، اذاعة لجيل أو فئة من جيل معذب بهمومه واحباطاتـه وتمرداته ..

تلك هي رغبة الربيعي مــن « الافواه » .. وتلك رغبـــة لا تنسحب على الحاضر وحـــده ، ولا تتبدى كامتداد من الماضي (البسيط والمعقد) ، بل ستمتد في المستقبل ، لان الربيعي يطمح لان يعمم نماذجه - يجعلها على كل الافواه .. ولان نمـــاذجه تفتني بالارضي ، المـــادي ، الحياتي ، فهي ليست نمـــاذج جامدة أو ساكنة ..

لذا فان « الحـــالة الابداعية » المستنبطة التي تشكل هم « الافواه » ، اللسان القصصي ، ستظل عند الربيعي هما دائما فـــي الخروج على اللحظة الراهنـة وانتخاب المثل كما يشتهي خيـــال الفنان مضافا الـى ذاكرة الواقع ..

« فالافواه » قصص توظف تجاربها على طريـــق تجاوز العادي الى تأسيسات اصطفاء النموذجي .

بغداد



الواقع - التمرد - الاسطورة

في روايـة « من أكون في اعتقـادكم »

مهدي النجار

« أتراجع لأتأمل عملي وحياتي . انني لا أرى بعد المسيح مسمرا على عموده، مجتذبا بين ذراعيه الناحلتين ألم البشر كلهم . هناك حيث يموت ابن الانسان سيولد عالم جديد . لقد قهر المـوت وتراجع الضيق . واذا بالفرح ، فرح النشور الخـالد ، ينفجر في صرخـة انتصار » (ص ٢٣٩) .

التمـرد الفـوضوي ـ على حد تعبير غارودي ـ أو الاحساس الميتافيزيقي بالذنب لم يقودا « كافكا » الا الى أحلام الهروب من « الدائرة اللعينة » ، دائرة العالم المعاش وصراعاته .

من نفس هذه الدائرة اللعينـة التي تسمر المسيح مجتذبا بين ذراعيـه الناحلتين الم البشر كلهـم ينشأ التمرد ، ولكن بين هذا التمرد وذاك ، أي بين تمـرد « غارودي » وتمرد « كافكا » ، توحد وانفصال ، توحد في الحلم وانفصال في الاسطورة ، توحد في الواقـع وانقطاع في الهدف .

التمرد هنـاك ينشأ مسكونا بالموت والقهـر والاستسلام والهروب ، بينما ينشأ هنا مسكونا بالنبض والتحدي والفرح والامل ليتفجر أخيرا عنـد ضفاف أسطورية ، حلوة ، عذبة ، مشمسة بالحب ، متوحـدة فيها « أنات » الجميع . أسطورة فيهـا الحياة لا تشكل الا وحدة مع مبدئها .

✱ « من أكون في اعتقادكم » ـ روايـة ـ تأليف روجيـه غارودي ترجمة : د. سهيـل ادريس ط. دار الاداب ـ بيروت ١٩٧٨

ملاحظة : وردت شواهد اثناء قراءتنا لروجيه غارودي اعتمدناها من كتابيه : « ماركسية القرن العشرين » ـ ترجمة نزيه الحكيـم ـ دار الاداب ، بيروت ١٩٦٨ ، « واقعية بلا ضفاف » ـ ترجمة حليـم طوسون ـ دار الكتاب العربي ، القاهرة ١٩٦٨ .

هنا الاسطورة تستهدف الانسان لتأصيل انسانيته ، وهي ما دأب غارودي عـلى تسميتها في ماركسيته للقرن العشرين : « الاسطورة الحقة » ، المتضمنة انفلاتا مزدوجا من الطبيعة الخارجية ومـن طبيعتنا نحـن . أو بتسميـة أخرى : « الاسطورة المفتوحة » ، التي توجهنا نحو المركز الخلاق في ذواتنا وتفتح لنـا آفاقا دائمة الجدة وتساعدنا عـلى تخطي حدودنا ، أي تلك الحكاية الرمزية التي تذكر الانسان بحقيقتـه ككائن خـلاق !

واذا حاولنا أن نعزو الى روايـة « من أكون فـي اعتقادكم » هدفها النهائي فاننا سنكتشفه مشتركا بين أهداف أساطير الدين وحكايات التـاريخ ، أي بتعبير هيغل : تمثيل ما يجيش في النفس البشرية تمثيلا عينيا ومشخصا .

ومن هذا التمثيل عينه تتولد « قوة الاستنهاض » في الاسطورة ، هذه القوة التي تحضر المستقبل باعتباره خميرة الحاضر .

✱ ✱ ✱

ليس الحاضر خميرة المستقبل بعكس كل الاساطير « المظلمة » ، « المغلوقة » ، وانمـا المستقبل هو خميرة الحـاضر .

والآن : كيف دخل غارودي الى المستقبل ليحضر « الاسطورة » خميرة الحاضر ؟

هكذا بحركة شاقة ، جدلية ، حركة ذهاب وأياب دائمة بين : الواقع ـ الحلم ، الخاص ـ العام ، الشاهد

ـ الغائب : البعد الانساني الشقي ـ البعد الانساني المفارق . الذات المتفردة ـ الجماعة .

لنضع ايدينا على البدء :

« ولد في أعماقي ، قاتل ، جذور عنف تجتاحني . وفي ذراعي وساقي حاجة الى الضرب . في صدري وفي فمي ، همهمة وحش ينقضّ ، وفي رأسي حلم التدمير والسحق آناء الليل وأطراف النهار » .

هذا البدء لا يطاق ، كيف تتحمله الذات ؟ ولكن هي ذات بشرية من لحم ودم ، تشبه ذوات أخرى بدأ ينمو العنف فيها مبكرا لتصير أخيرا صورة كاملة للعداء . تضم في أعماقها أحلام التدمير والرعب والعنف والتحطيم . يقطعها السأم عن كل حياة ، يصنع منها نبتة تذبل ، نبتة جافة ، روحا جافة .

هذه الذات وما تتضمنه ولدت من رحم « الدائرة اللعينة » . وشربت من حليبها .

الدائرة اللعينة . ذات الاجهزة الكابتة والسلطات القمعية احتضنتها وأشبعتها بكل شيء ولم يكن بها جوع للحياة بعد الا جوع الانتقام !

والآن ، قبل كل شيء ـ وبأي لون أو ثمن ـ يجب أن تخرج هذه الذات المشبعة بالسأم من تلك الدائرة اللعينة ، الدائرة التي تمركزت فيها شهوة الربح ، راسمة في ازدحام البشر الفوضوي تخطيط الارصفة ومكاسر الامواج والمتاجر والساحات والبورصات والمصارف والمستودعات والسكك الحديدية وثكنات الفيالق العسكرية واقبية الاستجوابات التعذيبية .

وللمرة الاولى ، تنفلت هذه الذات ـ وهي غريبة عن كل انفلات ـ بطرق شقية ومنحرفة ، لتغمرها السعادة ، سعادة الانفلات فقط .

وتظل الذات « المسعورة » تنطلق بكل قوتها ، بكل طاقتها نحو اللاشيء .

هكذا فقط : الانطلاق !

في هذا الانفلات ذاته لم يخمد التناقض الاساس : الحب البشري والعداء المصنوع من دماء الدائرة اللعينة . ولكن العداء يستحوذ ليصنع من الحب وجها كريها وفعلا تدميريا قاتلا :

« حين كنت أبدأ بحب شخص ما أو شيء ما ، لم أكن أستطيع احتماله ، كان ينبغي أن أنتزعه ، أن احطمه » .

تتكون لحظات حب رهيبة لا يمكن احتمالها تستبدل بالتدمير .

اذن فان الانفلات غايته النابتة في الجذور : افعال التدمير .

كان تبضيع « الممرضة » الفعل الاول .
وكان قتل جندي « الفرقة الاجنبية » الفعل الثاني .
وكان استنزاف دم « الراهب » هو الفعل الثالث .

أفعال التدمير تلك هي عنف العالم كله وقد تمخض عن النفس « المنفلتة » ، فقط لكي توجد .

أستبدل التفكير بالفعل التدميري : أدمر اذن أنا موجود .

« لكي أدلل على اني كنت حيا ، لم أكن أستطيع أن أعطي الحياة بل الموت » .

* * *

ولكن ليس ثمة خوف أو رهبة من فعل التدمير . ان هذا الفعل يبدو عاديا ، سمجا ، تافها ، كأي فعل آخر .

ان الخوف ، القلق ، يبدأ من الانفلات نفسه ، من الانفصال عن أحضان الدائرة اللعينة ، من النبذ عن الجماعة ، أي عندما تواجه الذات نفسها وحيدة . هنا تحسّ بالخوف . لذا يبدأ فيها شوق عارم للاحتضان، للارتباط بالجماعة ، أي جماعة : منحرفة ، اجتماعية ، روحية ، سياسية .

وتحمل الريح القوية الذات المنفلتة ، عبر أسفار ومدن الى جزيرة الجوع . ليس هروبا من القتل وانما نحو الجماعة :

في هذه الجزيرة « سيد واحد يملك هذه الارض كلها : الجوع . ومعه جيش وشرطة في خدمته لوقف تمرد الذين لا يطيقون بعد أن يصارعوه » .

وفي الجزيرة يدخل الانسان « المتوحد » الجماعة، جماعة « الحب » ، جماعة النضال ضد الجوع .

لم يذهب غارودي بعيدا عن وحدة التناقض التي يلمسها في « الدائرة اللعينة » وانما يؤصلها لصالح أسطورته .

كان قد قتل العدائية في ذروة قبحها ، في لحظات الانفلات اللاواعي من السأم ، صوّر ما يجيش في النفس البشرية في لحظات تفردها من عدائية هي مخاض لعدائية العالم نفسه .

ويعود الآن ناقلا هذه « الذات » القاتلة نفسها الى الجماعة لتمارس فعل الحب : النضال ضد الجوع .

كانت تدخل في الآخرين ويدخل الآخرون فيها كماء متدفق !

هكذا يتم النقل : من التمرد العدائي الى تمرد الحب . وهذا التمرد الجديد يتعدى الالم نفسه ليتحول الى تحديات وانذارات .

الجماعة تتميز بانسانيتها من خلال فعلها الذي يظهر كمشروع للحب :

« أن نحب جميع الناس ، فهو أن نحرر المساكين من عبوديتهم والاغنياء من القدرة على الاثم » .

ولا شك ان مفهوم روجيه غارودي لمشروع الحب، ألتحرر ، الثورة ، يتمركز حول الايمان ، وخاصة ذاك الايمان المسيحي ، تلك الرغبة المسيحية المصلوبة من أجل الآخرين ومن أجل التحرر ، ومحكوم بنداءات التحام الانسان مع « فعله » ، مع الرب ، الالتحام مع المفارقة الالهية ، ولكن هذه « المفارقة » ليست محمولا من صفات الله بل هي بعد من أبعاد المسيح «الانسان» . اننا أمام تمثلّ رائع لاسطورة ايمانية تحمل امكانية قيام انسان جديد ، عالم جديد .

ان الجماعة تتحرك بايمان حار ، تدفعها نداءات الكاهن بقوة لا تقهر :

« أذكر زمن عبوديتك .

سأجعل العميان يسلكون طريقا مجهولا وسأشق الصخرة لتنبجس منها المياه » .

كانت تضحية الكاهن شحنة الجماعة « المناضلة » القليلة ، الضعيفة ، المتمزقة .

وتصبح الطبيعة كلها حليفة للجماعة : انها تبسط قواها بمقدار الرهان : الحرية والحياة .

والجماعة تناضل وتتطوع دائما للموت وبها يقين بأن الايمان أن يعيش المرء مع الآخرين ، أن يعيش للآخرين ومن أجل الآخرين .

هكذا يبحث غارودي عن الشعلة الاصلية تحت رماد الايمان البارد ويحول الصوت التوراتي الى صوت ايماني ثائر :

« هذا غير صحيح ! ليس لاحد الحق بأن يقول لمن يموت : « الله يحبك » اذا لم يفعل شيئا لتغيير مصيره » .

وتمشي الجماعة المتوحدة ، المتحمة نحو الضفاف « الاسطورية » عبر طرق الابادة الوعرة ، تخسر الكثير ، تتمزق ، تحترق أجسامها وأرواحها، تستلب . لا تمتلك أي شيء تعطيه سوى الموت ، موتها الجماعي ، وتحسّ أثناء ذلك بشعور من الامتلاء ، بفرح خفي . ينابيع تتفجر داخلها .

لم يبق من الجماعة الا تلك « الانا » التي رأيناها أول الامر حابطة ، قاتلة . والآن تقاد الى الجزيرة لتحاكم ؟!

* * *

من الآن فصاعدا يتوضح تشكيل الاسطورة .

الانتقال من التأصل الديني الى التأصل الدنيوي . من التمرد الايماني الى التمرد الثوري .

على جزيرة الجوع وضع مضطرب : « اضراب عام ! ليس كالاضرابات الاخرى . ليست القضية قضية رواتب حتى ولا قضية تلويث الهواء . كانت كلمة السر : «ضد التلويث السياسي» ! » .

كانت مناشيرهم تهيج السكان : « قل لي أية طاقة تستعمل ، أقل لك أي مجتمع يهيئون لك ... الطاقة الذرية المركزة تقودنا الى نظام بوليسي » .

« الذات » المولودة في دائرة الوأد والقمع ، « الدائرة اللعينة » ، تقاد الى المحكمة عبر الاضراب «الاسطوري» لتصبح ذات رمز ، ذات نبي ! ومحاكمتها تصبح رمزا . وفي محاكمتها محاكمة مجتمع برمته ! وتجري المحاكمة بجو مشحون بالغضب والتدفق نحو عالم جديد .

قضاة « الدائرة اللعينة » يحاولون أن يمسخوا قضية « الجرم » ويحولوها الى مجرد قضية عادية ، هذيان ، يحاولون نزع « الانا » من مسؤوليتها عن حياتها .

ولكن اصرار « الانا » على الاحتفاظ بنفسها ، عن مسؤوليتها كاملة ، تستنهض الناس وتفجر أعماقهم .

ــ « لن يستطيع مجتمع حقيقي أن يبني نفسه الا باسم هذه الحياة الاكبر . ان حريتك يا ابن الانسان ، ستملأ السماء. ولكن فور نهوضه ، فليمش ! من منكم ؟ من ؟ » !

على الجزيرة المضطربة تذاع وقائع المحكمة بتضخيم أسطوري ، توقظ ، تجبر الناس على التساؤل.

تتحول المحكمة من قضية « الانا » الى قضية « الكل » . بل أكثر من قضية أو انقلاب ، الى فعل خلق جماعي ، وتتحول « الذات » القاتلة ، الميتة ، الى « ذات » حية ، نبية ، تقود الجماعة . وتتساءل عندما يتعلق جميع سكان الجزيرة بأذيالها :

« أين تراني سأتودهم ؟ وأين ترى هذا يقودني ؟ » .

هل يقف غارودي في فنه عند حد الاستنهاض والايقاظ ، عند حد النقل من الواقع الى التمرد ؟ لا . بل يواصل . يريد أن تتكلم رسالته عما فيه الناس وعن حركتهم وعما يفتقدونه ويصبون اليه .

* * *

ينبغي العودة الى البدء قبل الانتقال الى الضفاف الاسطورية في النفس الغارودي .

هذه العودة هي عودة لذاك القول السالف نطمح فيها أن نلتقط رسما مركزا لمحاور الرواية التي يؤسس غارودي عليها ضفافه ، وسنرتكب شناعة في العمل الفني اذ سنهشمه لاستخراج محاوره وهذا فيه عذر لاجل الكشف :

● **محور الواقع :**

يبدأ فيه كل شيء مبكرا جدا . ربما في السادسة من العمر ، انه صورة العنف الاولى ، الساذجة جدا ، التي لا تزال تلاحق « الذات » وتكبر معها . هذا الواقع هو الذي أسميناه : بالدائرة اللعينة بكل ما تحتويه من أجهزة كابتة ومجهضة .

● **محور التمرد :**

التناقض الاساس داخل « الأنا » . فمثلما ولد الواقع صورة العنف الاولى داخل « الأنا » أي القطب العدائي ، فان الحب المتأصل عند البشر هو الآخر ينمو كقطب نقضي للقطب العدائي ، ومن خلال هذا التناقض يتفجر التمرد بعدة اتجاهات ومراحل :

المرحلة الاولى : تمرد التحدي . التمرد اللاواعي. مجرد ضد ، ضد السأم بكل الاتجاهات وضد كل الاتجاهات . انفصال عن النظام (القتل ، التدمير) عودة منحرفة الى الجماعة (عصابة مخدرات) :

« بادىء ذي بدء حين دخلت العصابة بدافع التحدي : ضد أبي ، ضد أمي ، ضد المحرمات . دائما ضد ودائما وحدي » .

المرحلة الثانية : تمرد الايمان ، تمرد فوضوي على الواقع واحتجاج عليه ، يتشذب تدريجيا ليصبح دعوة مسيحية « خالصة » . المسيح يبرأ « الأنا » من أمراض السأم ، يدعوها الى « المفارقة » ، الى السمو .

صوت الرب يدعو « الذات » لتكون الرب ذاته .
(هذه الجدلية أساس عند روجيه غارودي في حواره مع المتدينين :

× كيف التحدث عن الانسان من غير التحدث عن الرب الذي يسكنه ؟
× اننا مصلوبون وانما انطلاقا من القبر يبدأ «البعث» ...) .

هذا التمرد الجوهري هو الذي يضع « الأنا » أمام (الحرية) وعلى عتبة الاختيار الصعب لكشف نفسها ، لكشف « الاله » الذي يسكنها :

« ليس هناك من جواب آخر ممكن . ان على كل انسان أن يختار أمام الموت ما الذي سيفعله كل منا بحريته ؟ أيكشف الرب الذي يحمله في داخله ؟ » .

المرحلة الثالثة : تمرد الاسئلة ، تمرد الوعي ، اذا جاز لنا أن نسميه تمرد « اللماذا ؟ » .
ـ « أتراكم تعرفون فقط ما عسى يكون الانسان ؟ ذلك الذي لا يكتفي بأن يعيش كما تعيش شجرة أو كلب ، وانما يتساءل : «لماذا» ؟ » .

« اللماذا » شحنة رهيبة من التمرد أخطر ألف مرة من ألف رصاصة تدمير . تفجر حدود النمطية ، حدود السجون ، تفلش أقبية الاستجواب التعذيبي ، توقظ عبثية كل ما كان وكل فعل ـ تضع الجماعة في حضرة صورة مميتة عن نفسها .
تنهض « اللماذا » عارية ، لا هوادة فيها . يستحيل اخضاعها للصمت .

المرحلة الرابعة : تمرد الثورة المتفجر عن «اللماذا» الداركة . لحظات من النشور وأيام القيامة .
عودة حالمة : من اللاوعي الى الوعي . من الغائب الى الشاهد . من الهروب الى الحضور .
عودة متفجرة : من الخاص الى العام ، من التفرد الى الاسرة ، من الفوضى الى النظام ، من العدائية الى الحب الاعظم :
« أية مغامرة ! هل تتصورني ، انا المتسكع ، الفوضوي وعلى ذراعي طفلان ، أبا لأسرة ؟ » .
طفلان يولدان من جديد ، ليشكلا عالما جديدا . عالم الاسطورة .

● **محور الاسطورة :**

من ذاك وعلى محور التمرد بكل مراحله يبدأ غارودي ببناء خلاق لعالم ما زال في الضفاف الاخرى . يبحث عن أطوار تكوينه في مأساة البشر وآلامهم ومآسيهم ورفضهم وتمردهم ، منقبا عن ايقاعه الداخلي ومشاركا في انشاء ذلك الايقاع .

نسيج من عالم متخيل جديد ، يصنعه غارودي ويراه من خلال الحركة والتذكر والحلم والامل والخوف.

هذا النسيج الاخاذ ، نسيج العالم المخلوق من جديد وبكيفية جديدة ، فيه تتوضح معالم الانسان وأبعاده الخلاقة وتتأصل انسانيته .

من لمحة العالم القديم نفسه تحدث ولادة ثانية لعالم زاه ينبض فيه الفرح :
« أترى سيكون من الممكن صنع عالم يخلق فيه البعض البعض الآخر ؟ هذه قضية أخرى . ولكن اذا حدث ذلك ، فسيكون على الارجح عالما يشبه هذه الزهرة : ستكون ثمة شمس لا تنفد ، ولن يحاول أحد أن يكبر على حساب الآخرين بل يستمد حاجته من هذه الشمس » !

بغداد



خطوتان نحو اليقين

تميم كنعان

لا تقل لي : حقبة تمضي ..
وأيام تغذ السير للآتي وعصر مستحيل
لا يروح الوجع اليومي الا ويلاقيه على الضفة ..
يوم أسود مر طويل

لا تقل لي : أنة تخفت
ضحكات تجوب العالم السفلي ، ترتاح
فما حولي سوى صمت وأصوات تموت
هذه الامة في مفترق العجز مع الخوف تبيت
أمة تخلع وجه الدم ، تنقاد بلا وجه لعرس وثني ..
وسراديب يجوس البوم فيها ..
لتعانيه اغتصابا
قدست أبخرة الكهان فحواه كطقس أزلي !!

لا تقل لي : ذاك كابوس على صدري
ووجهي لم يعد وجهي
وجرتني الليالي السود ، أحنيت لها رأسي
وأعلنت لكهانك : اني قدري !

ليس هذا وطنا، بل غابة ينبت في أشجارها السوس
تعاني الفخر ..
لا تنبت تفاحا ورمانا
ولكن رغوة النفط وفحم حجري !!
أيهذا الوطن الموغل في الوحل
ترانا سوف نطوي ،
دربنا يرسمه الساحر في خيمته ، في الضفةالاخرى
سنطويه على متن حصان عربي !!

* * *

لا تقل لي .. لا تقل لي
انني أحتفل اليوم باطفاء الشموع الاربع .. الخمس
على ذكرى قديمه :

أنا والسقف وجدران وأرض رطبه
لا دماغي حجر النار ..
ولا صدري مجن للذي يأتي ولا يأتي
جفوني قطعة من جبل الثلج ، محال !
رجلا من رغوة الحقل ، نفايات الصناعات ..
بقلبي كان قنطار من الصمت ومن عسف السؤال !
يومها ما جاءني طيف وزوار ..
فأسبلت جفوني ولياليّ على طيف
سيأتي من شقوق الفجر يغويني ، يناديني : تعال !!
رجلا من رغوة الحقل ومن عسف الليالي
كنت صبارا وجلمودا من الصخر المحال
جثة تسعى ، حياة في ضباب ،
في جحيم اغلقت أبوابها ..
صخرا ونارا لا تبالي
... ولذا قلت أنا بالامس هذا
يومها كنت وحيد
جاء صوت يتراءى في سراديب
ويسعى لاهثا ، جاء وولّى
تتمطى عتمة ، يضحك مسجون
ويضوي قمر من شرفة الحي تدلّى !!
جاء صوت غائر يسعى
ضباب ينتشي عبر المدى المجهول
ينأى في المسافات ، نهار يرتدي قبعة الليل
وموت يتمادى
نبضة تسري وتهمي في شراييني عيون تتملى
نبضة تجهض ، صوت هزني هزا .. وولّى !
طائر يفترش الصخر جناحاه ، شراع
وعلى الكثبان يرتاح الشراع

جاء صوت وأنا أبلوه من حين لحين
اتقرى كنهه أعطيه صوتي
فلقد كنت وحيد !!
جاء صوت :
منجم يزحف شحم أسود رمل وملح
ويمامات وقمح وتراب
يتلوى في البعيد !
جاء صوت ..عامل يشفي جراح الحرب بالحربة ..
لا يصنع سيفا للطواغيت ونيرا للعبيد

أيتها ... الوجه المستباح

نظيم ابو حسان

وحيدا ... أعود اليكِ
يطالعني وجهك المستباح
وحزن شفيف بعينيكِ
آه من هدأة عينيك
ومن غزوة الشعر للعاشقين
فهذا النخيل ...
وهذي الشواطىء
هذي النجوم ...
وهذا دمي ...
باسمهم أعشق الآن ..
ان اركب الموج ،
والاخضر المستجد
على قامة الجرح
وأن استرد ،
من النـار ... عاصفة العشب
من الريح ... مركبة الشدو
من النار والريح ...
بوابة الانتصار ...
باسمهم ...
أعشق الآن
أن ابدأ السفر الملحمي ..

حنيني اليك اشتهاء الوصول ..
وحزني ...
رغيف تمرد من كثرة الاغتراب
ولا شيء ينفع
غير الدماء التي واكبتني
رأيت ترابك ينهض
من أعين الفقر
رأيت غصونك
تزدان بالصحو
والرغبة المستحمة بالبرق ...
رأيت القرنفل ...
بيني وبينك
شمسا تلوّح للقادمين
رأيت
رأيت
رأيت :
هنا الحلم يأخذ شكل العناق..
هنا الحب يكبر ،
والدم ينهض مثل المنارة ...
ما بين طعم السنابل
والياسمين .

أي صوت جاءني يحرمني من وحشتي : رمل وملح
اي أشباح وليل خسرتها شرفتي ،
نافذة الشمس ببيتي
منذ أن كنت وحيد !!
أي صبح .. أي درب شائك
أي جناح يتهادى
أي صوت غائر عبر سراديب
من العتم تمادى
يا نبيّ اللغة المنسية الاخرى
ويا رؤيا من الآتي البعيد
هات ما تعطيه كفاك :
جرار الخمر ، خبز الليلة الاخرى
وحيدا كنت لا تبق .. فلن أبقى وحيد !
بردى يخلع كوفيته
ينأى عن الشام الى الشام

ويستلقي على الصحراء مرتدا عن العصر الرديء
قادما نحو رمال الضفة الاولى ،
ضباب بعضه صمت وصوت يتلاشى
مدن ساحاتها تفرغ ، صحراواتها تفرغ
غير الريح تنأى وتجيء !!
نهرنا يأتي على عصر بصوت يتلاشى
أيهذا النهر في عصر رديء :
لا تقل لي أنة تخفت ، ضحكات ... وموت
ويمامات ... وصوت ...
رجل يصنعه عسف السؤال
جثة تهوي ونجم صاعد عبر الليالي
وخيال يتلاشى ، شبح يطوي فتاواه
وأطويه خيالات ، وأوهام خيال
أيهذا النهر يا صخرا ونارا لا تبالي

النشاط الثقافي في الوطن العربي

من مراسلي «الآداب»

ج. م. ع.

من مراسل «الآداب» بالقاهرة

المناخ الثقافي السائد...

بعد حرب ٦٧ ، بدأت ردة ثقافية ، تمثلت في هذا التغير السريع والمستمر ، لخريطة النشر والتوزيع والتآليف في مجالات الثقافة المصرية ، كتابا ومجلة ، واتجاه مؤشرات وعلامات هذه الخريطة ، في رأيي ، الى التحول والانحدار . فقد تزايدت عددا ، ونشرا ، وتوزيعا ، كتب الدراسات السطحية التجارية لموضوعات الدين والجنس ، وتناقصت كتب الدراسات والابداعات الجادة ، وبخاصة في الشعر ، والقصة ، والمسرح ، والنقد . وأحجمت دور النشر الخاصة عن نشر كتب الثقافة الرفيعة ، لتناقص قرائها ، وضعف القدرة على شرائها ، وارتفاع أثمانها ، وسوء شبكات التوزيع للكتاب العربي .. الا ما كان من هذه الكتب مقررا على طلاب المدارس والجامعات . واتجهت هيئة الكتاب العامة التابعة لوزارة الثقافة الى استبعاد نشر الكتب لاسماء معينة من كتاب الصف الاول ، من الشيوخ والكهول والشباب ، الليبراليين والتقدميين ، وفتح أبواب النشر لكتاب الصفوف التالية ، فأحيت منهم من سقط في غربال الثقافة ، وشجعت أصحاب القدرات الضعيفة والمتوسطة ، وذوي الاقلام التي تركب الموجة حينا ، وتسير مع اتجاه الريح حينا ، وتتخذ من الكلمة ، حينا آخر ، وسيلة لكسب تجاري رخيص ، وغير مشروع ، عند أدنى مساءلة للضمير وللاخلاق .

وكانت للثقافة في مصر مجلاتها الفكرية والفنية والادبية المتخصصة ، التي تصدر عن وزارة الثقافة . اغلقت من بينها احدى عشرة مجلة ، أغلقها يوسف السباعي ، لانها تخسر في مجموعها ، فيما قال ، اربعين ألف جنيه. ثم غير يوسف السباعي أسرة تحرير مجلتي « الطليعة » و « الكاتب » ، اللتين تعبران عن فكر سياسي معين ، عصري ، وتقدمي ، وملتزم وقومي . واستبدل ما أغلق بمجلتين هما : « الجديد » و « الثقافة » (بدلا من مجلة المجلة) . وقد سجلت هاتان المجلتان ، مع مجلة « الكاتب » ، وثلاثتها تصدر عن الهيئة العامة للكتاب ، خسارة بلغت ستين ألف جنيه ، في ستة أشهر ، في أول سنة لها بعد هذا التغيير . ومن المعروف بين المثقفين ، ان الهدف الاساسي من هذا الاغلاق للمجلات الثقافية ، أو تغيير تحريرها ، يرمي الى الكف عن نشر الثقافة الجادة ، ويرمي الى اغلاق أبواب الفكر في وجه العصر كله ، والى تحويل تيار الثقافة العربية من مساره العصري ، والقومي ، والتقدمي ، والملتزم ، الى التعبير عن قيم التخلف ، والأمية ، وتدشينها ، وتكريس عادات المجتمع الزراعي القروي البدائي وتقاليده . ويرمي الى استبعاد الكتاب الجادين ، والكتابات الملتزمة ، ابداعا ودراسة ، من الساحة الثقافية ، وقطع ما بين الكتاب وبين الجماهير القارئة ، على قلتها ، من صلات وتأثير ، دون حبس أو اعتقال أو مصادرة غالبا . ويرمي الى دفع هؤلاء الكتاب الى النزوح بأنفسهم الى عواصم ثقافية عربية أخرى ، أو الى الهجرة بأقلامهم ، الى أية مجلة عربية ـ أو دار نشر عربية ـ لا تصل الى القارىء المصري ، أو تصل اليه بأعداد محدودة ، لا تتجاوز في أحسن حالاتها بضع مئات .

وهذا التفريغ كله ، والتغيير المستمر ، المرتد بمسار الثقافة المصرية الى الوراء ، جاء مواكبا ومتسقا، مع الآثار التي أحدثتها حرب ٦٧ في الواقع المصري ، ومع التغييرات والتحولات التي تم انجازها ، باستمرار، في مجالات الحياة الاجتماعية الاخرى . ومن تحصيل الحاصل الوقوف عندها ، أو الاشارة اليها ، خاصة وان ثياب الديمقراطية واقنعتها مطاطة ، ومتقلبة الالوان ، ووفيرة التبريرات .. في سائر الدول النامية.

وهذا المناخ الثقافي السائد ، منذ حرب ٦٧ ، أصاب عددا من خيرة المثقفين المصريين ، بالاحباط ، والتوتر ، والحزن . كفت أقلام بعضهم عن كتابة القصة والشعر والمسرح ، الا من نزر يسير ، لارضاء الضمير المعذب بين الحين والحين ، وربما لمجرد

استمرار الشعور بالقيمة وبالحياة . وتحولت أقلام بعضهم الى توظيف مهاراتهم الكتابية في كسب لقمة العيش ، من الصحف ، أو الكتب الرخيصة ، أو برامج الاذاعات والتليفزيونات . فقد كانت ثمة محاولات لاصدار الكتب ، وتسريب نشرها ، في داخل مصر ، وفي خارجها ، وكانت ثمة محاولات لاعادة الروح الى الحياة الثقافية في مصر ، بندوات ، أو لقاءات ، أو جمعيات (الجمعية الادبية المصرية ـ جمعية الفن ، وسرعان ما أغلقتا أبوابهما : الاولى باليأس ، والثانية رغما عنها) . ومن بين هذه المحاولات ، مجلات ، وكتيبات ، تصدر في بضعة أوراق تكتب غالبا بخط اليد ، وتصور منها بضع مئات ، وتوزع غالبا من يد الى يد ، وتقدم أشعارا وقصصا ومقالات، أكثرها لا يساوي في القيمة ثمن المداد الذي كتبت به . والمحزن انها لم ترق الى المستوى الرفيع لمجلة « غاليري ٦٨ » ، وانها تؤخذ من غير العارفين بحقائق الامور ، على انها تمثل وجه التقدم والالتزام والخبرة الرفيعة في مصر . والاكثر اثارة للاسى والحزن ، واللوعة والفجيعة ، انها تحول امكانيات مصر خبرة وطباعة ، الى صورة باهتة لامكانيات مدرسة اعدادية ، أو شباب مراهق يعبر عن نفسه في صحافة حائط . ان قراءة هذه الظاهرة تعكس ما أصاب حركة النشر من ضمور ، ومن العجيب انها لم تسقط من جبين أحد ، قطرة من عرق الخجل ، بل ربما اعتبرها البعض وسيلة من وسائل المقاومة . ولكن أية مقاومة ، وبأي صورة ؟!

وفي هذا المناخ الثقافي السائد ، كانت ثمة دار للفكر الملتزم ، تواصل نشرها للكتاب الثقافي الجاد ، هي دار « الثقافة الجديدة » لصاحبها محمد الجندي (ابن يوسف الجندي ، أحد أبطال المقاومة المصرية للاحتلال البريطاني في مصر ، وزعيمها في مدينة زفتي، والذي أعلن في هذه المدينة جمهورية ، برغم الحكم الملكي ، استمرت ستة عشر يوما) . ولقد حرصت هذه الدار على الاستمرار في تحقيق هدفها ، الرامي الى توعية القراء بحقيقة تاريخهم وواقعهم ، وبمشاكلهم وحلولها ، في شتى صور التوعية ، بالدراسة ، والشعر ، والقصة ، والمسرحية . ولقد حاولت هذه الدار اصدار مجلة جادة ، عندما أفلت شموس المجلات الثقافية الجادة ، هي مجلة « الثقافة الجديدة » . لكنها سرعان ما توقفت عن الصدور ، بعد عددها الاول ، لاسباب لا أعلمها بعد على وجه اليقين . فجأة في هذا العام ، نشرت دار الثقافة الجديدة رواية ، هي (في خط النشر الذي تلتزمه هذه الدار) نغمة نشاز . الرواية لعبد الله الطوخي ، أحد كتاب جيل الخمسينات . وهي بعنوان : « فجر الزمن القادم » . والزمن القادم لهذا الفجر ، عند عبد الله الطوخي ، هو السلام بين مصر واسرائيل . وقد ذيل الطوخي السطر الاخير لهذه الرواية ، بهذا التاريخ « أغسطس ١٩٧٨ » . وأترك عرض هذه الرواية لقارىء «الآداب» ، في رسالة قادمة . وسأجتهد ، يعلم الله ، في أن أكون محايدا ، وباردا ، في عرضي لهذه الرواية . ومناقشتها موضوعا وفنا وتوقيتا لاصدارها ، وتأريخا لحياة كاتبها ، الذي صار ، شاء أو لم يشأ ، شخصية عامة بصورة ما . أما الآن فلدي ما هو أهم من الحديث عنه في هذه الرسالة .

ثمة سؤال يتبادر الى الذهن ، بعدما أثرته عن بعض ملامح المناخ الثقافي الذي ساد مصر بعد حرب ٦٧ . هذه الحرب ، السريعة ، الخاطفة ، الباهرة ، التي توقفت فجأة ، بعد أكتوبر ٧٣ ـ بعد بضعة كيلومترات، على الضفة الشرقية لقناة السويس العربية، ماذا كان بعدها في مناخ الثقافة في مصر ؟

غير يسير علينا أن نجيب تفصيلا عن هذا السؤال الآن . فقط ، المناخ الذي كان سائدا ، ظل سائدا ، ومستمرا ، لكنه بدأ يثير بين المثقفين المصريين ردود فعل ايجابية هامة ، للتغلب على عناصر السلبية فيه ، للخروج من الدوائر المفرغة : دوائر الاعتماد على ما تبذله الدولة للثقافة ، من خلال الهيئة العامة للكتاب ، ومؤسسة المسرح ، والسينما ، وغيرها . زيادة او نقصا ، منحا أو منعا ، تحكما في المسار الثقافي يسارا أو يمينا ، أماما أو خلفا . ودوائر الركون الى دور النشر التقليدية الخاصة ، أو التي ربما أرهقها الاستمرار في النضال . فلقد تكاثرت الاحاديث في مقاهي الادب وأنديته عن الحاجة الى دار للنشر ، والحاجة الى اصدار مجلة . أسرة تحرير غاليري ٦٨ تبحث عن الوسائل لاعادة اصدارها . أدباء الاقاليم يحاولون محاولات متواضعة لاصدار مجلاتهم . البعض يصدر كتبا هامة جامعية ، وغير جامعية ، في دار الثقافة (غير الجديدة) وربما على نفقته الخاصة . قطاع الثقافة ، والمسؤول الاول عنه ، بعد حين الغيت وزارة الثقافة في الوزارة السابقة ، هو سعد الدين وهبه ، أعد خطة جديدة للثقافة ، تهدف الى رفع يد الدولة عن انتاج الثقافة ، ودعم الجمعيات الادبية والفنية بالمال لاصدار الكتب ، والمجلات ، واخراج الافلام والمسرحيات ، فذلك اقل وطأة واحراجا ومسؤولية من مباشرة الدولة بنفسها لشؤون الثقافة . الخطة ما تزال بمجلس الوزراء منذ عام ، للموافقة عليها ، وعرضها على مجلس الشعب الحالي . لكن المشكلة التي ستنتج عن هذه الخطة ، هي من سيمنح دعما من هذه الجمعيات ومن سيمنع ؟! من سيختبر فيما يفعل بما منح ، وينجح في الاختبار بالمسايرة والمهادنة

والاستسلام لتغيرات المسار الثقــافي المطلوبة ، أو يرسب في الاختبار بالعناد وركوب الرأس ؟! بمقتضى هذه الخطة فيما أعلم ، ستدمج دار الكتب ، في هيئة الكتاب ، ويصبح نشرها للكتب مقصورا عــلى كتب المراجع ، وكتب التراث . أما مبادرات الجيل الراهـن في حقل الثقافة ، فلا منفذ لها ، ولا لقراء هذا الجيل ، سوى الجمعيات الادبية والفنية ، التي سيشرف عليها فيما أعتقد ، وفي حـــدود ما أعلم ، المجلس الاعــلى للثقافــة .

في هذا الجو الثقافي ، حدثت مفاجاة هامة ، في حركة النشر في مصر . ثمة دار جديدة للنشر تعلن عن نفسها ، بأعمالها ، في بطء ، وهدوء ، هي « دار الفكر المعاصر » ، ولا يكاد عمرها يزيد الى يومنا عـن عــام وأحد . صاحب هذه الدار ، مــع آخرين ، والمشرف عليها ، هو عبد السلام رضوان . واحد مــن الكتاب المصريين الشرفاء . يحسن الاختيار والانتقاء لمطبوعات الدار . أصدرت دار الفكر المعاصر ، وبرأسمال متواضع ومحدود (يجمع مردود مبيعاته بالكاد) عدة كتب هامة هي : « العالم الروائي عنـد نجيب محفوظ » لابراهيم فتحي ، و « المسرح التجريبي مــن استاتسلافسكي الى اليــوم » لجيمس روس ـــ ايفانز ، ترجمة فــاروق عبد القادر ، و « المنطق الجـدلي » لهنري لوفيفر ، ترجمة ابراهيم فتحي . بل ان هذه الدار تقتحم بدربة ووعي احتكار اصدار السلاسل المألوف من دور الصحف ودور النشر الكبرى ، مثــل دار روز اليوسف ، ودار الهلال ، ودار المعارف ، ودار اخبار اليوم ، فتصــدر سلسلة ثقافية ، متنوعة المجالات من كتيب الى كتيب ، هي سلسلة « كراسات الفكر المعاصر » . في هـــذه السلسلة أصدرت دار الفكر المعــاصر : « المواويل » شعر فؤاد قاعود ، و « هربرت ماركيوز » دراسة لفؤاد زكريا ، و « حكايات للامير » قصص ليحيى الطــاهر عبد الله ، و « ازدهار وسقوط المسرح المصري » لفاروق عبد القادر .

وتعد « دار الفكر المعاصر » لاصدار كتب أخـرى شعرا ومسرحا ، وقصــة ودراسة ، في مقدمتها : « أقوال جديدة عــن حرب البسوس » لامل دنقـل ، و « وقائع عام الفيل كما يرويهـــا الشيخ نصر الدين جحا » لعبد الفتاح الجمل ، و « الخروج من الظـل » لفؤاد قاعود ، و « أحلام رجال قصار العمر » لمحمـد البساطي ، ومسرحيتا « فترة التـوافق » و « ليـلة السحلية » لتنيسي ويليامز » ، ترجمـة فاروق عبـد القادر ، و « قاموس المصطلحات الادبية » من اعــداد ابراهيم فتحي ، و « مدخل لتاريخ الفن التشكيـلي » رسالة ماجستير لمحمد حسن سـالم ، و « سول بيللو وأزمة الرواية العصرية » .

وفي سلسلة الكراسات ، ستصدر هــذه الدار الشابة كتيبات أخرى ، هي : « الحلم » شعر لحسـن عقل ، و « أزمة الفكر البرجوازي العربي » دراســة لصـــلاح عيسى ، و « هيغل : نصوص وتعليقات » لكوفمان ترجمة محمد يونس ، و « تصاوير من المـــاء والشمس والتراب » ليحيى الطاهر عبد الله .

وقبل أن تغيب شمس هذا العام ستصدر « دار الفكر المعاصر » سلسلة جديدة هي : « مختارات الفكر المعاصر » تقدم فيها نصوصا مختــارة من الشعـر ، والقصص ، والمسرحيات ذات الفصـــل الواحـد ، والدراسات ، في الادب العربي القــديم والحديث ، كنماذج ممتازة لعطاء الادب العربي في شتى أزمنتــه وأقطاره . وستكون مختارات الكتاب الاول فــي هذه السلسلة ، مــن بين قصص سليمان فياض ، التي نشرها خلال خمس وعشرين سنة ، ونشر معظمها فـي مجلة « الآداب » .

وتمكنت دار الفكر المعاصر ، بعد شهور قليلة من تعاون هذه الدار مع الكتاب المصريين الشرفاء ، مــن اصدار العدد الاول من مجلتها الثقافية الفصلية « الفكر المعاصر » في صورة كتاب يصدر بصفــة غير دورية ، يهدف الــى تقديم ونشر دراسات ومتابعات ونصوص أدبية مختارة . وضم هذا العدد الاول قصصا وأشعارا ودراسات ، لأهم الكتاب المصريين الذين اعتصموا طوال ربع قرن مضى بروح الجدية والالتزام والشرف الثقافي، وبالتأكيد سوف ينضم الى زمرتهم في الاعداد القــادمة رفاق آخرون على درب الكلمة الشريفة والصادقة ، من مصر ، ومن الوطن العربي كله .

ومستوى هذا العدد الاول مــن الفكر المعاصر ، يناظر مستوى الاعداد التي تنشرها مجلة « الآداب » ، طوال خمس وعشرين سنة ، ويعيد الى الذاكرة المستوى الرفيع الذي كانت تصدر به في الاربعينات مجلتــا : « الكتاب » و « الكاتب المصري » .

لكن السؤال يظل هو : هــل ستقدر هــذه الدار على الاستمرار في تحقيق رسالتها ، وبخطتها الطموحة، برغم سوء شبكة التوزيع في العالم العربي ، وصعوبـة وصول الثقافة الى الجمهور القارىء ، وبخاصة فــي ظل الظروف العربية الجديدة الراهنة ؟ الاجابة على هذا السؤال مرهونة بمواقف القائمين على دار الفكر المعاصر في المستقبل ، ومرهونة بمــواقف الكتاب العرب ، ومدى عودة الروح الى قلــوبهم وأقلامهم ، ومرهونـة بمواقف القائمين بالتوزيع من مطبوعات هذه الـــدار ، ومرهونة بمواقف القراء العرب القادرين على الشراء أو الاشتراك ، ومرهونة بمواقف من يملكون القدرة عــلى الاعلان مــن دور النشر العربية الاخرى الخاص منهـا

والعام . فهـــذه المواقف كلها هي التي تحسم وتقرر مصير أي دار للنشر ، أية مجلة ، أي كتاب ، وتتحكم في ازدهار الثقافة العربية أو سقوطهـــا ، وتتغلب أو تخضع للظروف العربية الراهنة ، المتخلفة ، والسائدة، تستسلم لها ، لتكرس واقع التخلف الحضاري العربـي وقيمه ، أو تتحداها ، لتتجاوزها .

ما كتبته هنا عن « دار الفكر المعاصر » ، ليس ، في جوهره ، اعلانا عنها . لقد أردت فقط أن أتحدث عن مناخنا الثقافي ، وظواهره ، لقراء « الآداب » فـي أرجاء الوطن العربي ، ولا أشك لحظة في ان حيـاة أي دار للنشر ، هو أيضا حياة لدور النشر العربية الاخرى. وحياة أية مجلة هادفة ، هي أيضا حياة لسائر المجلات العربية الهادفـــة الاخرى . وحديثي عن دار الفكر المعاصر ، شأنه شأن أي حديث عــن أية دار أخرى ، جادة ، وهادفة .

« س. ف. »

* * *

الجزائر

اعداد عبد العالي رزاقي

تجديد « اتحاد الكتاب الجزائريين » :

تجري الاستعدادات حثيثة لانعقـاد المؤتمر الاول لاتحاد الكتاب الجزائريين ، بعد أن أصبح يسير فـي « الطريق المسدود » .

وفي هذا الاطار انعقدت يـوم ١٤ حزيران ١٩٧٩ جمعيـة عامـة « استثنائية » ، ناقشت بعض المشـاكل التي يعاني منها اتحاد الكتاب الجزائريين على الصعيدين المادي والمعنوي ، لعدم تحديد العلاقة الموجودة بينـه وبين وزارة الاعلام والثقافة والحزب . وكذلك انتهـاء مهمة الهيئة الادارية .

وتشكلت لجنة تحضيرية تتفرع عنها لجان أخرى لمناقشة القانون الاساسي ومقاييس الانتماء الى الاتحاد. وأهم ما أثار الانتبـــاه ان الكاتب الجزائري باللغـة الفرنسية قد غاب في هـــذه الجمعية ، بحيث كـان الكتاب الحاضرون لا يشكلـون (حسب القــانون الاساسي) النصاب الكافي لعقد جمعية عامة . ومـع ذلك فانها تكونت وقررت أن يعقد المؤتمر الاول قبـل نهاية السنة الجارية .

مشروع جديد لحقوق التاليف :

انعقد في ١٦ حزيران المـاضي ، بمقر الشركـة الوطنية للنشر والتوزيع اجتماع لمناقشة مشروع جديد لحقوق التأليف تقدمت به الشركة لاتحاد الكتاب حتى يوافق عليه ، وتقدمه بالتالي الى وزارة الاعلام والثقافة.

والجديد في هذا « المشروع » هو ان مدة العقـد بين المؤلف والشركة حددت بخمس سنوات بدلا مـن العقد القديم الذي ينص على تنازل المؤلف للشركة عـن كتابه مدى الحياة .

كذلك ارتفعت النسبة التي يأخذها المؤلف مـن كتابه الى ١٥ ٪ بدلا من ١٠ ٪ . وحددت مدة الطبـع بسنة بدلا من عدم وجودها في العقد القديم .

ويأتي هذا « المشروع » بعد ان رفع احد الكتاب الجزائريين دعـوى ضد الشركة مؤخـرا ، وتلبيـة لتصريحات وزير الاعلام والثقافة على أن تصبح الشركة ذات طابع ثقافي بدلا من طابعها التجاري .

المهرجان الخامس للشعر والرابع للقصة :

أسدل الستار على النشاط الثقافي لوزارة التعليم العالي والبحث العلمي بتنظيم المهرجان الخامس للشعر والرابع للقصة ، في ٣٠ من أيار الماضي ليبـــدأ في منتصف شهر تموز « ملتقى وطني » للتدرب المسرحي يشرف عليه المخرج المسرحي مصطفى كاتب . ويـدوم شهرا كاملا يتلقى خلاله الطلبة دروسا تطبيقية في فن المسرح يقدمون في نهاية الشهر مسرحية عربية ، وقد شارك في « تدرب » السنة الماضيـة الكاتب المسرحي الفريد فرج وقدمت مسرحيته « سليمان الحلبي » .

وما يميز المهرجان الخامس للشعر والرابع للقصة الذي تتبناه وزارة التعليم العالي منذ خمس سنوات ، هو انه احتضن هذه السنة مواهب جديدة وخاصة في مجال القصة حيث أثبتت قدرتها على مسايرة أختهـــا في المشرق العربي . وهذا ما لاحظـه الدكتور سهيل ادريس في محاضرة له بالجزائر حول (تطور الروايـة والقصة العربية المعاصرة) بدعوة مـــن وزارة التعليم العالي والبحث العلمي .

وأهم حدث في مهرجـان هذه السنـة هو ان مضامين انتاج المشاركين في المهرجـان يشكل ، فـي معظمه ، هموم الانسان في الوطن العربي .

مواقف ضد الشعر الحر !

تتبنى بعض الصحف الوطنية ، هذه الايام ، وعلى راسها جريدة « الشعب » في صفحاتها « الادبية والفنية » ، حملة عنيفة ضد الشعر الحر ، معتبرة اياه تشويها للادب الجزائري القديم .

ويزعم « كتابها » ان الشعر الحر في الجزائر ، وكذلك في بعض الدول العربية الاخرى ، هو محاولة تستهدف « الثقافة العربية الاسلامية » .

ويبدو ان هذه الحملة تتخذ مسارين :

أ ـ انها تدعو الى الابقاء على الشعر العمودي باعتباره يمثل الاصالة العربية الاسلامية .

ب ـ ترى في « التجديد » خطرا على الثقافة العربية في الجزائر ، باعتبار ان التجديد يحمل أفكارا « ماركسية » !

وفي تقديرنا ان هذه الحملة لا تستهدف الشعر الحر في حد ذاته بقدر ما تهدف الى تمييع القضايا الاساسية للثورة ، لانها ترى ان « الاصلاح » أولى من الثورة ، وبالتالي فهي تجيء كامتداد طبيعي لحركة الاصلاح « الباريسية » التي ظهرت في العشرينات والثلاثينات . وهي ترى في « الثورة » خطرا عليها لان مفهوم الثورة في الجزائر نابع من الثورة المسلحة ، وهو يهدف الى تغيير البنى التحتية للمجتمع الجزائري ، واعطاء مفاهيم جديدة لواقع جديد يسعى الى تحقيق الاشتراكية .

وأصحاب هذه الحملة هم الذين نظموا مظاهرة بجامعة وهران ضد الشاعر العربي الكبير نزار قباني ، يطالبونه فيها بالتوبة والغفران ، واتباع الاخلاق الاسلامية والكف عن « الشعر الاباحي » .

المهرجان الاول للشعر الجزائري :

شهدت مدينة قسنطينة ، بالشرق الجزائري ، أول مهرجان للشعر الجزائري أشرف عليه فرع اتحاد الكتاب الجهوي . وهي مبادرة طيبة لخلق تقاليد ثقافية في الجزائر .

ودام المهرجان ثلاثة أيام وهي ٢ و ٣ و ٤ حزيران، خصص اليوم الاول للافتتاح حيث القيت كلمة شرحت فيها الاسباب التي دعت الى تنظيم هذا المهرجان الشعري باسم (مالك حداد) كانطلاقة أولى . كما القيت كلمة قصيرة من طرف زوجة المرحوم مالك حداد استعادت فيها بعض مميزاته ككاتب عربي ، وتحدثت عن علاقاته الاجتماعية والسياسية .

أما اليوم الثاني والثالث فقد قدمت فيهما أمسيتان شعريتان كانتا منبوعتين بدراستين للاشعار الملقاة .

وما يلفت النظر في هذا المهرجان هو « البيان » الذي صدر في نهايته ، اذ يعتبر وثيقة (أدبية ـ سياسية) تهدف الى تغيير الثقافة « الاستهلاكية » السائدة حاليا في الجزائر. وتدعو الى التجديد والانفتاح على المشرق العربي .

يقول البيان :

« نحن المشاركين في مهرجان الشعر الاول ـ مالك حداد ـ الذي نظمه وأشرف عليه فرع اتحاد الكتاب الجزائريين في الفترة ما بين ٢ ـ ٤ حزيران ١٩٧٠ نتفق على ما يلي :

أ ـ نظم المهرجان تحت شعار (من أجل أدب جزائري ثوري اشتراكي) لان النضال الذي خاضه الاديب الجزائري بالكلمة لا يقل أهمية عن النضالات التي قدمها أبناء هذا الوطن ، ابان الثورة المسلحة .

ب ـ تدعيما وتجسيدا للنضال التقدمي والاختيارات الاشتراكية والطموحات التي يجب على الاديب الجزائري أن يأخذ مسؤوليته في تحقيقها ابداعا ومعايشة .

ج ـ سعيا وراء نشر ثقافة عربية جزائرية تصب في رافد الانسانية .

د ـ وأن يكون أدبنا حاملا هموم ونضالات القوى الحية في البلاد .

ويضيف « البيان » فيما يتعلق بالمطالب :

نطالب بـ :

١ ـ أن يهتم الاعلام الجزائري بالثقافة التقدمية .

٢ ـ توسيع المهرجان عربيا ودوليا باستدعاء شعراء ونقاد .

٣ ـ خلق جوائز أدبية بأسماء الادباء والكتاب الشهداء مثل : أحمد رضا حوحو ـ الربيع أبو شامة ـ الامين العمودي .

واقترح أخيرا على السلطات المعنية بالامر :

١ ـ مراجعة سياسة الاعلام الثقافي واصدار ملاحق ثقافية تخدم الاهداف التقدمية للبلاد.

٢ ـ مضاعفة الاهتمام بنشر الانتاج الجزائري الحديث والتعريف به .

وكان المهرجان الاول للشعر الجزائري خطوة عملاقة في اعطاء صورة عن واقع الشعر الجزائري سواء القديم أو الجديد .

وهذا الناقد الشاب مصطفى نطور يقول فيمقدمة دراسته للقصائد الملقاة : « أهم ما يلفت انتباهي أثناء القراءات هو ان القصائد حاولت أن تستوعب هموم الانسان المعاصر ، وما يكتنفه من قلق وتوق الى حب انساني كبير ، والاحساس بفاجعة التخلف ، وما الى ذلك من النقائص التي يعاني منها الانسان العربي ، على العموم ، والجزائري على الخصوص » .

أطفال الجزائر يرسمون الجداريات :

بعد تأليف لجنة خاصة من طرف الدولة ، للاحتفال بعيد الطفل ، تقوم وزارة الاعلام والثقافة حاليا بتنظيم تجمعات في الحدائق العامة للاطفال لتعليمهم الرسم ، ولاتاحة الفرصة للتعبير عنمواهبهم. وما يلفت النظر في رسوم الاطفال حتى الآن هو انها تنصب على رسوم بسيطة لمساكن وبيوت صغيرة ؛ أو شجيرات بعض الطيور .

وكأن أزمة السكن التي تعيشها الجزائر استولت على عقول الاطفال وبالتالي أصبحت همومهم الصغيرة هي هموم الكبار .

ملتقى عربي حول القصة والرواية :

مشروع جديد قيد الدرس ، تشرف حاليا عليه مديرية الآداب والفنون بوزارة الاعلام والثقافة ، وهو تنظيم ملتقى عربي حول القصة والرواية يستدعى فيه نقاد وروائيون وقصاصون لتقديم عروض حول الرواية أو القصة في هذا القطر أو ذاك ، مع الاستفادة من تجاربهم في هذا المجال .

ويحتمل أن ينظم في تشرين الثاني (نوفمبر) القادم كأقصى حد ، وذلك بمدينة وهران .



توصيات ندوة الحوار الفكري

اجتمعت اللجنة السياسية المنبثقة عن لجنة الحوار الفكري للمهرجان الرابع للشباب العربي المنعقد في الرباط من ٥ ـ ١٢ تموز ١٩٧٩ ، بحضور ممثلين عن الاقطار العربية . وقد كان محور نقاش اللجنة ورقة العمل المقدمة من الوفد المغربي بعنوان « نضالات الثورة الفلسطينية في مواجهة الصهيونية والامبريالية » ، والقضايا الاخرى الواردة في مقترحات الوفود .

وبعد سلسلة من الاجتماعات والنقاش المثمر البناء ، توصلت اللجنة الى القرارات والتوصيات التالية :

أولا ـ في مجال القضية الفلسطينية :

بما ان الوجود الصهيوني فوق أرض فلسطين ، مدعما بالامبريالية العالمية ، يشكل خطرا جسيما على كيان الامة العربية ومستقبل تحررها وتطورها .

وبما ان الصراع العربي الصهيوني الامبريالي على امتداد ساحته الزمنية صراع طويل ومرير ، في كافة المجالات ، ونظرا لاستمرار السياسة التوسعية الاستيطانية التي تشكل العمود الفقري لسياسة الحركة الصهيونية معبرة بذلك عن مدى الوحشية التي تتمتع بها هذه الحركة العنصرية ، ونظرا لاشتداد الهجمة الامبريالية على المنطقة العربية ووصولا لاخطر منعطفاتها، مستهدفة القضاء على القضية العربية وجوهرها القضية الفلسطينية ، وعلى كيان الامة .

وعلى اثر الاتفاقية الاستسلامية الخيانية التي وقعها النظام المصري مع العدو الصهيوني بمشاركة ورعاية الولايات المتحدة الاميركية في ٢٦ آذار (مارس) ١٩٧٩ ، والتي حققت للعدو الصهيوني أشياء ما كان يحلم بها من اعتراف النظام المصري بالحدود الآمنة ، وانهاء لحالة الحرب وانكار للحقوق الوطنية الفلسطينية والعربية ، هذه الاتفاقية التي كانت نهاية طبيعية لسياسة التراجعات التي بدأها حاكم مصر علىالصعيدين الداخلي والخارجي .

ومع الانتفاضة الجماهيرية الرائعة التي يخوضها الشعب الفلسطيني في الارض المحتلة معناها رفضه للاحتلال الصهيوني ولمؤامرة الحكم الذاتي وتمسكه بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلا شرعيا وحيدا له وتحقيق الحد الادنى من التضامن العربي في مؤتمر

قمة بغداد ، ومع تصعيد الثورة الفلسطينية لكافة اشكال نضالها وخصوصا في الارض المحتلة وتكثيف عملياتها العسكرية مسقطة نظرية الامن الصهيوني .

ونظرا لما يمثله جيل الشباب من أمتنا ، وللمهمات الخطيرة والجسيمة الملقاة على عاتقه ، فان الشباب العربي في مهرجانه الرابع المنعقد في المغرب في الفترة من ٥ - ١٢ تموز ١٩٧٩ :

١ - يؤكد بأن الثورة الفلسطينية بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني في مختلف أماكن تواجده ويطالب فصائل الثورة الفلسطينية بالعمل على تصليب وحدتها الوطنية ، كما يؤكد على ضرورة حرية واستقلالية القرار الفلسطيني ، ويطالب الدول والشعوب العربية تقديم الدعم المادي والمعنوي للثورة الفلسطينية .

٢ - يثمن انتفاضة الشعب الفلسطيني داخل الارض المحتلة ، وهو يغمر الارض تحت أقدام الاحتلال الصهيوني ، ويفشل مؤامرة الحكم الذاتي الخيانية ، ويعلن تعلقه بقيادته الثورية منظمة التحرير الفلسطينية ممثلا شرعيا وحيدا له .

٣ - يثمن تلاحم قوى الثورة الفلسطينية مع قوى الحركة التقدمية والوطنية اللبنانية في مواجهة القوى الانعزالية والصهيونية على أرض لبنان .

٤ - يطالب بفتح باب التطوع أمام الشباب العربي والاسلامي مع الثورة الفلسطينية لاخذ دوره في قضيته المركزية - القضية الفلسطينية - ولتجسيد وحدة وقومية المعركة .

٥ - يطالب بفتح كل الجبهات والحدود العربية أمام البنادق الفلسطينية المقاتلة .

٦ - يؤكد على وجوب احياء الجبهة الشرقية ، وعدم ترك الفرصة للعدو الصهيوني للقضاء على الثورة الفلسطينية كما يحصل الآن في جنوب لبنان .

٧ - يطالب بصهر كافة الطاقات العربية والاسلامية المادية والبشرية والمعنوية في خدمة المعركة القومية المصيرية ، وتقديم الدعم والمساندة لقوى الثورة الفلسطينية لتمكينها من القيام بدورها ، وتطوير امكانياتها في مواجهة العدو الصهيوني .

٨ - يطالب بتجميد الخلافات العربية الثانوية والهامشية من أجل التصدي للعدو الرئيسي للامة العربية والتي لا تؤدي الا لهدر الطاقات العربية .

٩ - يشجب ويدين نظام السادات المتحالف مع العدو الصهيوني والامبريالية وكذا كل الانظمة المؤيدة له والمتعاملة مع العدو ، كما يدين الدور الخطير الذي يلعبه النظام المصري في خدمة الامبريالية في الوطن العربي وافريقيا . ويحيي الحركة الوطنية المصرية في نضالها ضد نظام السادات العميل .

١٠ - يؤكد على عروبة ووحدة وسيادة لبنان في مواجهة التجزئة والاطماع الصهيونية وأدواتها .

١١ - يؤيد القرارات الصادرة عن مؤتمرات جبهة الصمود والتصدي ، ومؤتمرات الشعب العربي ببغداد والمؤتمر الاسلامي بفاس ، وقرارات لجنة القدس ، ويطالب بالتطبيق الكامل والفوري لهذه القرارات .

١٢ - يطالب كل الدول الاسلامية والدول المحبة للعدل والسلام أن تقف وقفة صادقة مع الامة العربية في نضالها العادل ضد العدو الصهيوني .

١٣ - يطالب بتخصيص يوم السابع من يناير من كل عام ، الذي هو يوم شهداء الثورة الفلسطينية ، يوما نضاليا للشباب العربي من أجل الثورة الفلسطينية تقام فيه التظاهرات والندوات وغيرها من النشاطات لمساندة الثورة الفلسطينية .

ثانيا - القضايا العربية :

١ - ان المهرجان الرابع للشباب العربي يسجل باشمئزاز قرار حكومة كندا بنقل سفارتها الى القدس المحتلة، مكرسة بذلك تحديها لحقوق الشعب الفلسطيني الوطنية وتحديها لمشاعر الامة العربية والشعوب الاسلامية .

والمهرجان يعتبر قرار حكومة أوتاوا تنكرا لتوصيات الامم المتحدة والهيئات الدولية .

كما يستنكر هذا القرار الجائر ويطلب من الشباب الواعي والتقدمي في كندا محاربته وشجبه والعمل على دفع حكومته للتراجع الكامل والفوري عن هذا القرار ، كما يطالب الحكومات العربية باتخاذ العقوبات الاقتصادية اللازمة فضلا عن العقوبات السياسية الضرورية لمحاصرة مصالح كندا والضغط عليها .

٢ - ان المهرجان يحيي الانتصارات التي ما فتىء يحققها الشعب العربي الاريتيري ويؤكد وقوفه ومساندته من أجل تحرير أريتريا واستقلالها .

ويناشد جميع القوى التقدمية العالمية لمساندة حق تقرير المصير ، خدمة لقضايا السلم ومعاداة الامبريالية ، ويطالب المهرجان باعطاء صبغة العضوية الكاملة للشباب الاريتيري في مهرجانات الشباب العربي المقبلة وكافة ملتقياته .

٣ - يحيي المهرجان نضالات حركة التحرر في

منطقة الصومال الغربي المحتلة من قبل الاستعمار الحبشي ويطالب الامة العربية بمساندة وتقديم كافة أشكال الدعم المادي والمعنوي لتحرير أرضه وتقرير مصيره ، كما يدين الاعتداءات الوحشية التي يقوم بها النظام الحبشي ضد المواطنين الابرياء .

٤ ـ يؤكد المهرجان مساندته المطلقة للشعب العربي في تثبيت استقلال أراضيه واستكمال وحدته الترابية التي تعرضت لتكالب القوى الاستعمارية ويطالب بتحرير باقي الاجزاء السليبة في : سبتة ومليلة والجزر الجعفرية ، جزر أبو موسى وطمب الصغرى والكبرى في الخليج العربي ، الجزر العربية اليمنية في البحر الاحمر ، لواء الاسكندرون واقليم عربستان .

٥ ـ يؤكد على احترام الحريات الديمقراطية داخل كل الوطن العربي وذلك باطلاق الحريات العامة وبتسريح المعتقلين السياسيين والنقابيين وعدم التضييق على حرية التعبير بكافة أشكالها ، ويجدد ايمانه الراسخ بالنضال من أجل فرض الحريات العامة باعتبارها أسمى حقوق الانسان وضمانا أكيدا لخلق أمة عربية متحررة وموحدة ويؤكد على الدور الذي يجب أن يلعبه الشباب العربي في الميادين الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتكنولوجية من أجل خلق مجتمع عربي متقدم ومتحرر .

٦ ـ يندد بكل التعسفات والاستفزازات التي يتعرض لها العمال المهاجرون العرب في أوروبا وغيرها ويدعو حكومات الدول العربية المعنية بالامر الى اتخاذ التدابير اللازمة لحماية حقوق المواطنين العرب المهاجرين كما يطالب الدول العربية باستعمال كل الوسائل الاقتصادية كالنفط والمعاملة بالمثل فيما يخص التقنيين الاوروبيين الذين يشتغلون في البلاد العربية ، كما يطالبها بتشغيل اليد العربية قبل غيرها في القطاعات الاقتصادية وتوفير كل الحقوق والضمانات في كل المستويات المادية والمعنوية ومعاملتهم كمواطنين ؛ كما يدعو الى وضع خطة لتوعية اليد العاملة وعموم المهاجرين العرب في سائر دول العالم من أجل وضعهم دائما في صورة الوضع العربي والاستفادة منهم في النضالات التي تخوضها الامة العربية .

ثالثا ـ في القضايا العالمية وحركات التحرير :

١ ـ يناشد المهرجان كل الدول العربية والاسلامية أن تمنح كل أشكال الدعم والمساندة ماديا ومعنويا لحماية حقوق الاقليات المسلمة في العالم والتي تعاني من الاضطهاد ، وأن تتخذ مواقف حازمة على المستوى الدولي لتضمن للاقليات المسلمة أحد ركائز حقوق الانسان وهي حرية العقيدة والممارسة ، الذي هو حق غير قابل للتفويت .

٢ ـ يدعو الحكومات العربية والافريقية وكل الحكومات والشعوب المحبة للعدل والسلام وكل القوى الوطنية والتقدمية لدعم حركات التحرير في زمبابوي وناميبيا وجنوب افريقيا ضد العنصرية والرجعية ، كما يطالب الهيئات الدولية بالوقوف على تطبيق العقوبات الاقتصادية التي اتخذتها ضد الاقلية العنصرية في شرق وجنوب افريقيا ، كما يؤكد على رفضه للمحاولات الاخيرة التي تستهدف اقبار الجبهة الوطنية في زمبابوي واعطاء الصبغة الشرعية للحكومة المزيفة فيها .

٣ ـ يحيي حركات الشباب في العالم المساندة للقضايا العربية عامة والقضية الفلسطينية على وجه الخصوص ، باعتبار ان الثورة الفلسطينية وحركة التحرر العربية تتفاعل مع حركات التحرير في العالم ، ويؤازر كفاحات الشباب في كل قطر من أجل فرض حقوقه الديمقراطية المشروعة سواء على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي أو السياسي أو الثقافي . ويناشد كل التنظيمات الوطنية والمنظمات الاقليمية والدولية للشبيبة الديمقراطية لجمع شملها في اطار فعاليات وحدوية والالتحام أكثر بكافة قوى التعبير الديمقراطي الجذري عبر العالم .

٤ ـ يدعو الدول والقوى الوطنية والتقدمية في العالم وكل الشعوب المحبة للسلام الى العمل من أجل الحفاظ على السلم والطمأنينة في المعمور وذلك بمساندة كل المبادرات الهادفة الى الحد من التسلح والاتجاه نحو جعل مصاريفه في خدمة التقدم والازدهار والقضاء على المجاعة في العالم ، كما يطالب كل الدول النووية بأن تعمل على استخدام طاقتها النووية في الاغراض السلمية ، وأن تلتزم دوليا بعدم اللجوء الى استعمال السلاح النووي في انتظار صدور معاهدة دولية ملزمة تنص على ابادة المدخرات النووية وتعطي الضمانات الكفيلة بتطبيقها .



عروبة مصر !

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٣ ـ

الداخلين فيه من أبناء الشعوب الاخرى يسابقون ابناءه الاوائل في الجهاد تحت راياته والذود عن حماه . واذا كان الاسلام ككل دين وفكرة يقبل تفسيرات مختلفة فحوادث التاريخ ترينا ان النص الديني الاسلامي دافع عن حقوق جماهير المسلمين وقاد انتفاضاتهم أكثر مما دافع عن الحكام وبرر افعالهم . وما يقال عن الاسلام يقال عن العروبة وخاصة في العصور الماضية التي امتزج فيها الدين بالقومية امتزاجا شديدا ، بل ان دور العروبة في الدفاع عن حقوق المصريين في بعض العصور أوضح ، لان العروبة كانت تميز المصريين من حكامهم المماليك والاتراك في حين كانت وحدة الدين بين الحكام والمحكومين تخفف من حدة الصراع . لكن الدور الثوري للشخصية العربية الاسلامية في مصر يزداد نضجا وتألقا عندما تبدأ ملحمة النضال المصري ضد المستعمرين الاوروبيين في العصر الحديث .

وأنا أقدم هذه الدراسة للطليعة من شباب مصر ، فلولا حاجتي لمخاطبتهم ما كتبتها . وهم وحدهم الذين يستطيعون أن يحكموا على الآراء التي قدمتها بالصواب أو بالخطأ ، لاني لا أقدم هنا بحثا أكاديميا وانما أتحدث عن ميراث قومي يتعرض للتزييف والتبديد ، وأقترح حلا للتناقضات المفتعلة بين عقائد القوى الوطنية المختلفة . ولا شك ان هذه الدراسة لا تخلو من اخطاء ونواقص ، لكني أسمح لنفسي بالقول ان الخطوط العريضة فيها صحيحة ، لانها ليست ابتكارا وانما هي استقراء للمسار الذي اتخذه نضال المصريين على مر العصور .

ان حاجة هذه الدراسة لهذا النوع من القراء هي ذاتها التي دفعتني الى كتابتها ، فليس هذا الميدان ميداني ، ولو انها شهوة الكتابة لكان المجال في الشعر افسح ، ولكننا الآن أمام خطر حقيقي داهم لا يصلح الشعر وحده للتصدي له . ولست أزعم لنفسي قدرة خاصة على التصدي لهذا الخطر ، بل أنا على العكس من ذلك أريد أن أضم صوتي الى صوت المثقفين المصريين المناضلين الذين فوجئت بأسماء أكثرهم حين هبوا للدفاع عن عروبة مصر في مظاهرة رائعة كشفت هزال ثقافة الاستسلام .

في أواسط الخمسينات عندما اعتنقت الفكرة العربية ونذرت نفسي للجهاد في سبيلها كنت التفت حولي فلا أجد الا ثلاثة او أربعة من شباب الكتاب المصريين الذين لهم مثل ايماني . لكني اكتشفت فيما بعد اننا لم نكن أول من آمن بالعروبة من المثقفين المصريين . فقد سبقنا للايمان بها الطهطاوي ، والنديم ، والمازني ، وزكي مبارك ، ومكرم عبيد ، وعبد الرحمن عزام ، ومنصور فهمي ، ومحمود عزمي ، وأحمد صبري شويمان وسواهم . وها أنا أرى ان الجيل الحاضر أكثر التفافا حول الفكرة العربية واخلاصا لها من الاجيال التي سبقته . والذين يظنون ان العروبة قد أتت مع عبد الناصر سيرون بعد قراءتهم لمختاراتي من كتابات العروبيين المصريين الذين سبقوا عبد الناصر ان عروبة مصر هي التي خلقت هذا الابن العظيم وليس هو الذي خلقها . والقياس على هذا صحيح ، فليس في وسع شخص آخر أو نظام آخر أن يقضي على العروبة . انها هي التي ستقضي عليه !

باريس